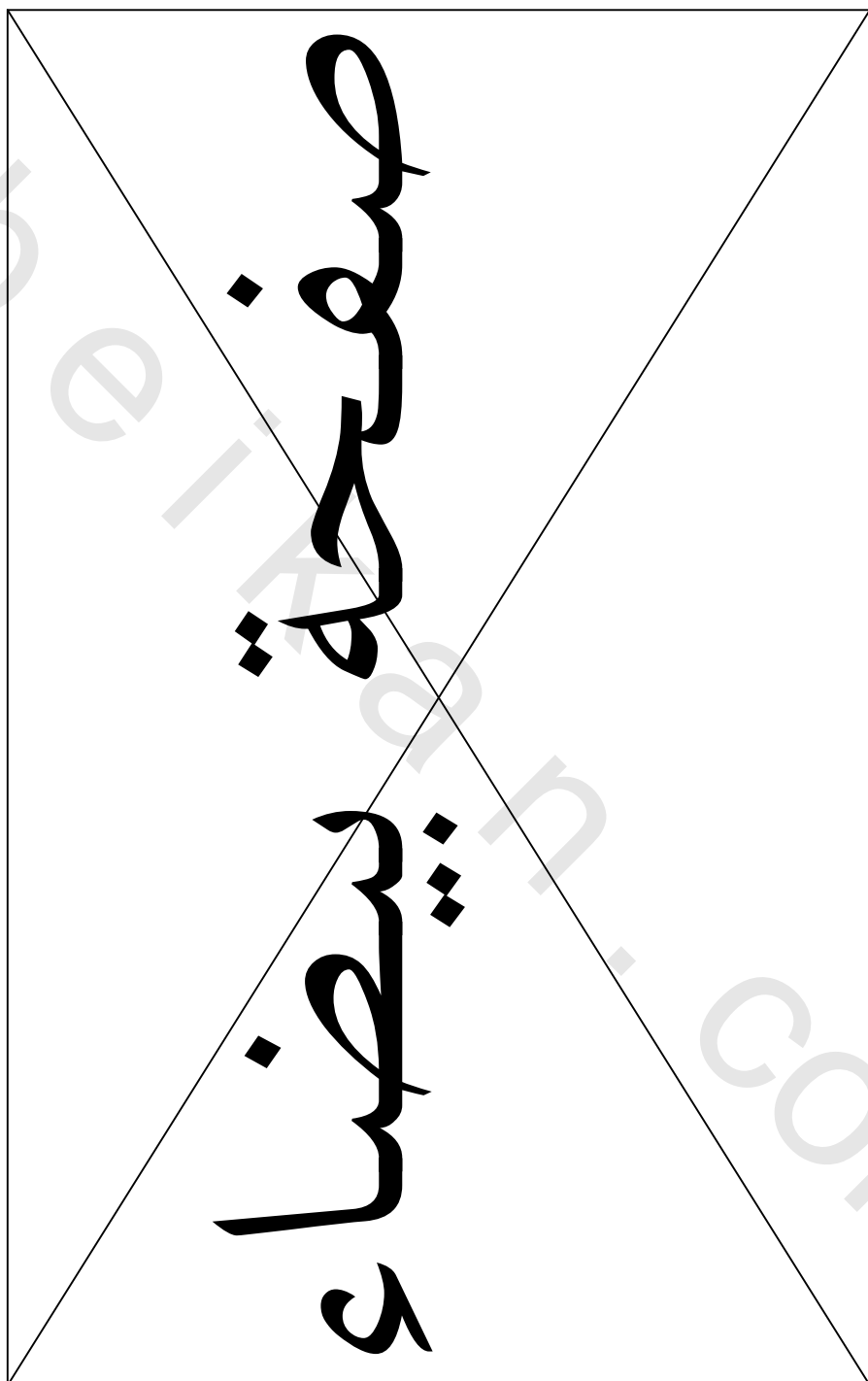


الباب الثالث

من روائع « المعاني » في القرآن الكريم

- من أسرار الحذف .
- من أسرار التقديم في القرآن .
- التقديم غير الاصطلاحي .



الفصل الأول

من أسرار الحذف

الحذف فن عظيم من فنون القول ، ومسلك دقيق في التعبير وتأدية المعاني ، ترى به ترك الترك أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجذب أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم بياناً إذا لم تبين^(١) .

وقد أشاد البيانون كثيراً بفن الحذف ، وأفصحوا عن ملامحه الجمالية فقعدوا له القواعد ووضعوا الشروط وأظهروا المزايا .

وكان لمظاهر الحذف في القرآن الكريم أكبر عون للبلاغيين على تعرف جهاته ، ورصد حالاته وكشف أسرار مقيساً عليه كل فن بليغ وأدب ممتع .

● شروط الحذف :

كل حذف لا بد فيه من شرط وسبب ..

أما الشرط فقد أجمعوا على أن الحذف لا يضار إليه إلا إذا بقيت في الكلام قرينة تدل على المحذوف ، حتى لا يصبح البيان ضرباً من التعمية والغموض ، لأن شرط جودة الأسلوب الوضوح وحسن الدلالة ، وهذا الشرط ضروري لا يُحمد إغفاله ، لأن الحذف إذا لم يكن فيه ما يدل على المحذوف - ويعينه أحياناً - جار على اللفظ والمعنى ، والألفاظ - كما قالوا - أوعية المعاني فلا بد من ملاحظتها مذكورة أو محذوفة دل عليها دليل^(٢) .

(١) إعجاز القرآن : عبد القاهر الجرجاني ص ٧٠ .

(٢) لا يشترط البلاغيون عند حذف الفاعل ، وإقامة المفعول مقامه أن يكون هناك دليل على الحذف لأن الفاعل عمدة لا بد من ملاحظته وإن حذف ، ولأنه قد أقيم مكانه عوض ، فهم يكتفون فيه بتوفير الداعي إلى الحذف مثل « قتل الخارجي » لأن الأهم قتله لا مَنْ قتله : المطول لسعد الدين التفتازاني ص ٦٨ .

وأما السبب فهو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى ترجيح الحذف على الذكر ، أو وجوبه ، إذا كان أدل على فخامة المعنى ، وسعة تصوره في بعض المواضع ، وفي هذا - أعني الداعي إلى الحذف - يكمن السر الجمالي في التعبير لكونه مظهراً من مظاهر مقتضى الحال ، والتصرف في إلقاء الكلام ، ومظاهر الحذف في القرآن الكريم كثيرة جداً لكن البلاغيين اتجهت عنايتهم إلى حذف المفعول به أكثر من غيره ، لأن اللطائف فيه أكثر وأعجب^(١) .

ويمكن تصنيف الحذف في القرآن الكريم على الوجوه الآتية :

- ١- حذف حرف .
- ٢- حذف كلمة مفردة .
- ٣- حذف جملة .
- ٤- حذف فقرة كاملة .

وأرى أن دراسة الحذف فيه على هذا المنهج أضبط من المنهج الذي سار عليه ابن الأثير في « المثل السائر » ، حيث قسّم الحذف إلى نوعين : أولهما : حذف الجمل ويقع في أربعة أنواع .. وستأتي طريقته .

ثانيهما : حذف المفردات ويقع في أربعة عشر نوعاً ، وقد أورد في حذف المفردات بعض الحروف ، والحرف لا يعد مفرداً ، وكان الأولى أن يبحثه تحت عنوان « حذف الأداة » .. كما أنه أدخل ما هو أكثر من جملة في حذف الجملة ، وحذف الجملة في حذف المفردات^(٢) ، لذلك آثرت هذه الطريقة إذ يبدو أنها أكثر ضبطاً .

أولاً : حذف الحرف

وقد جاء حذف الحرف في القرآن الكريم في مواضع متعددة ، ولمعرفة حذفه فيه - فيما أرى - ضابطان ، الأول : دلالة الحرف المحذوف على معنى مع بقاء هذا المعنى بعد الحذف . والثاني : اعتبار الحرف محذوفاً بالقياس على موضع آخر مماثل ورد فيه الحرف دون حذف .

(١) المثل السائر لابن الأثير : ٣٠٤/٢ .

(٢) المرجع السابق : ٢٧٩/٢ وما بعدها .

فمن النوع الأول : حذف حرف النداء « الياء » كثيراً في القرآن الكريم حيث لم يأت في القرآن أداة نداء سواه ، ولأن العلماء صرّحوا على أن أداة النداء إذا حذفت وجب أن يقدر المحذوف ياءً ؛ لأنها أم الباب^(١) .

وقد التزم القرآن الكريم حذف أداة النداء « الياء » مع كلمة « رب » خاصة في كل موضع وردت فيه على هذا الوجه إلا في موضعين :

الآية (٣٠) من سورة الفرقان ، وهي قوله : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٣٠) .

والآية (٨٨) من سورة الزخرف ، وهي قوله : ﴿ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٨) . وقد قصر الدكتور أحمد أحمد بدوي إذ يقول :

« وعلى كثرة ما نودي الرب في القرآن لم أعثر عليه مسبقاً بحرف النداء إلا في تلك الآية الكريمة : ﴿ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(الزخرف: ٨٨) .

« ويبدو أنه لم يتتبع مواضعها ، وإلا لم يقع في هذا القصور حيث صرّح بسبقه في آية الزخرف فحسب^(٢) .

وقد اهتدى الدكتور بدوي إلى تعليل مقبول لسر حذف أداة النداء « الياء » مع « رب » إذ يرى أن سر الحذف فيه للمبالغة في تصوير قُرب المنادى « رب » حيث إن معناه : المربي والسيد والمالك ، وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج في ندائه إلى وسائط .

• لماذا حذف « يا » مع « رب » ؟

ونضيف إلى ما ذكره الدكتور بدوي : إن هذه الكلمة « رب » أكثر استعمالاً من غير في الدعاء ، فروعياً فيها من جهات التخفيف ما يجعلها أطوع في الألسنة ، وأسهل في مجاري الحديث .

(١) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام .

(٢) انظر : كتابه من بلاغة القرآن ص ١٦٩ .

ولم يقتصر حذف أداة النداء في القرآن الكريم على كلمة «رب» فحسب ، بل جاء ذلك في مواضع كثيرة غيرها مثل : ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ (يس: ٢٠١) .

ومثل : ﴿طه ۝ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ٢٠١) .

ومثل : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (يوسف: ٢٩) .

والأصل يا يس يا طه ويا يوسف .. وقد كسا الحذف - هنا - العبارات فخامة وخلاصة .

● إيثار «الياء» :

ولعل السر في إيثار القرآن لحرف النداء «يا» دون غيره ؛ لأن هذه الأداة تكون الوسيلة الطبيعية في النداء ، إذ هي أكثرها استعمالاً عند الخاصة والعامة ، ولأنها أم الباب ، ولأنها أخف أحرف النداء في النطق ، لأنها تبدو في خفة حركتها كأنها صوت واحد ، لانطلاق اللسان بمدّها دون أن يستأنف عملاً . أما الأربع الآخر - وهي الهمزة وأيا وهيا وأي - فإن كلا منها يبدأ بحرف من حروف الحلق ، وهي أثقل الأصوات نطقاً .

● حذف «لا» مع «تفتأ» :

ومن حذف الحرف في القرآن الكريم إسقاط «لا» في قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُونُسُ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف: ٨٥) .

والتقدير : لا تفتأ تذكر يوسف .

ويرى الزمخشري ومن تبعه أن الحذف هنا حصل لا من اللبس ، والكلام مسوق للنفي إذ لو كان إثباتاً لوجب اللام والنون فيه ، فترك ذلك دليل على بقاء النفي وإن حذفت أدواته .

وقال ابن المنير في حاشيته على الكشاف في الموضع المذكور : «وحذف «لا» النافية للمضارع بعد القسم كثير لأمن اللبس» .

وقد استشهد الزمخشري بقول امرئ القيس :
فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
هذا حاصل تخريجهم للمسألة .

ولكن ألا يرد عليهم هذا الاعتراض وهو : إن جواز الحذف - هنا - في الصناعة النحوية لا يمكن أن يكون تفسيراً بلاغياً لتوجيه المعنى ، وأياً كان أمر الحذف في الآية والبيت فإنه ليس مستوى الطرفين ، بل الإثبات أرجح منه لأنه الأصل ، فلا بد - إذن - من تلمس وجه آخر غير الجواز النحوي يرجح من حيث المعنى الحذف على الذكر .

● سر حذفه :

وهذا الوجه - كما أراه - أن حرف النفي في الآية الكريمة « لا » محذوف لضيق المقام لأن الأزمات النفسية عند إخوة يوسف قد بلغت ذروتها في هذا الموضوع ، ويكفي أن يستحضر الإنسان الآيات السابقة على هذه الآية للتأكد من صحة ما أراه ، ويكون الجواز النحوي حينئذ ترشيعاً ومساندة لما نذكر :

﴿ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنْ أَبَيْتَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۖ ﴾ ﴿ ٨٦ ﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ ﴾ ﴿ ٨٧ ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۖ ﴾ ﴿ ٨٨ ﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّسِفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَبَيْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۖ ﴾ ﴿ ٨٩ ﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۖ ﴾ ﴿ ٩٠ ﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ ﴾

(يوسف: ٨٦-٨١).

فقد تجمعت - هنا - آثار الجريمتين : فقد يوسف ، واحتجاز أخيه بنيامين ، وتفجرت في نفس يعقوب عليه السلام عواطف اليأس والرجاء ، وظهر ذلك على ملامحه وأعرض عن إخوة يوسف غير آبه بما يقولون ، شاكاً في قولهم

في مقام يفيدهم فيه التصديق ، جائراً بالشكوى إلى الله يكاد الأسى يمزق قلبه وهو شيخ كبير افترسه شعور الحزن على وليدين محبوبين .

هذه المواقف المويّسة كان لها أثر بالغ على إخوة يوسف فضاقت عليهم الأرض بما رحبت فكان حسناً من القرآن - وهو يُعبّر عن تلك الحالات النفسية الدقيقة - أن يكون في التعبير نفسه ما يشير إلى تلك الحالات أبلغ وأوجز إشارة . . وكان التعبير كذلك .

أما ما ذكره عن امرئ القيس .. فإن موسيقى الشعر . وما كان فيه الشاعر من موقف يترب فيه الخطر ، فإن من الخير له أن يستبدل بالكلمات الهمسات وبالهمسات الإشارات خوفاً من أسماع وأعين الرقباء . وهذه حالة شبيهة بتلك ، ناسبها أن يخرج التعبير على الصورة التي جاء عليها في الموضعين .

ذلك ما أراه لا ثقاً لتوجه المعنى - بلاغياً - فوق الجواز النحوي .

أما النوع الثاني من ضابطي حذف الحرف - وهو النوع الذي يعتبر الحرف فيه محذوفاً في موضع قياساً على موضع آخر جاء مذكوراً فيه - فإن أمثلة ذلك من القرآن كثيرة ...

● حذف الواو وذكره :

ومنها قوله تعالى في شأن أهل النار : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (الزمر: ٧١) .

في هذه الآية حذف حرف الواو وقيل : « فتحت » بدليل ذكرها في موضع آخر مماثل لهذا الموضع ، وهو قوله تعالى في شأن أهل الجنة : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر: ٧٣) .

• دلالة هذا الحذف :

الواو - إذن - محذوفة في الموضع الأول ، مذكورة في الموضع الثاني ، فما السر في الحذف هناك والذكر هنا ؟ وما الذي ترتب على الحذف والذكر من تغيير في المعنى وفي الإعراب ؟:

لقد كان لهذا الصنيع أثره في الموضعين ، ويمكن تلخيصه فيما يأتي :

١- حذف الواو في الآية الأولى محض ما بعدها للشرط ، فأصبح جواباً لـ «إذا» ، أما ذكرها في الثانية فقد حمى ما بعدها أن يقع جواباً للشرط ، ولوّح بأن الجزاء محذوف ، ولأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف ^(١) .

٢- والحذف في الأولى دل على أن أبواب جهنم فتحت حين جاءوها ، لأن «إذا» ظرف لما يستقبل من الزمان ، و«فتحت» جوابها ، والذكر في الثانية دل على أن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل أن يأتوها ، فلماذا - إذن - كانت أبواب جهنم مغلقة ثم فتحت حين جاءوها ، وأبواب الجنة مفتحة قبل أن يأتوها ؟

٣- والجواب : لأن جهنم سجن ، والسجن ذلك شأنه : حُرَّاس شداد ، وأبواب محكمة الإيصاد : ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ (البلد: ٢٠) .

والجنة دار كرامة وتشريف ، فللترحيب بهم استعدت لهم قبل وصولهم ، ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَتِحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ ﴾ (ص: ٥٠) .

• موضع آخر لحذف الواو :

فتلك أسرار ثلاثة استفيدت من حذف حرف في موضع ، وذكره في موضع آخر مماثل .

ومثله في كون الواو محذوفاً في موضع ومذكوراً في آخر مماثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ٤٩) .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١١٤/٤ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَجْنَحَكُمْ مِّنْ ءَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِثُونَ أَسْنَآكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٦) .

وتوجيه التعبير في الموضعين ميسور ؛ لأنهما - وإن اتحدا في الغرض العام - فبينهما فرق واضح هو مكنن السر في الذكر والحذف .

فالآية الأولى تذكير من الله - مجرد تذكير - بما حدث لبني إسرائيل من بطش فرعون وآله .

وفي الآية الثانية يعمد موسى - عليه السلام - إلى تذكير بني إسرائيل بنعم الله .. ويعدد عليهم تلك النعم ، فلم يكتف بذكر الإنجاء ، بل مهّد له من أول الأمر للتذكير فناسب ذلك تعداد النعم ، والفصل بين آحادها ، فكأنه جعل سومهم العذاب محنة مستقلة نجاهم الله منها ، وعطف عليها غيرها .

لذلك جيء بالواو بين النوعين ، ومعروف أن العطف بالواو يقتضي المغايرة .. فلو ترك هذا العطف لصار السوم والتذبيح نوعاً واحداً ، ويكون الثاني تفسيراً للأول ، كما هو في الآية الأولى .

وإلى هذا المعنى أشار الزركشي في شيء من الإجمال^(١) .

ومثله كذلك قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٢) .

فقد جاء « رابعهم » و « سادسهم » . بعد « ثلاثة » و « خمسة » بدون واو .. ثم خولف في « سبعة » هذا النسق ، حيث عطف عليها « ثامنهم » بالواو ، والمواضع الثلاثة متماثلة .

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١١٦/١ .

فلا بد من سر خفي اقتضى الحذف في الأولين ، والدَّكر في الثالث .. فما هو إذن ذلك السر ؟

• توجيه النص مع الحذف وعدمه :

تعددت الآراء في توجيه ذلك ..

ففریق يقولون : إنها واو الثمانية^(١) .. ويذكرون على ذلك أمثلة من القرآن الكريم اتفق لهم فيها مجيء هذه الواو فيما هو مظنة ذلك ، منها : أن الله يقول في شأن أبواب الجنة : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (الزمر: ٧٣) ، وفي أبواب النار : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وأبواب الجنة ثمانية وأبواب النار ودركاتها - سبعة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحِمْدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١١٢) .

وعدوا منها - كذلك : ﴿ تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا ﴾ (التحریم: ٥) ، لأن «أبكاراً» ثامن كذلك ..

• رد ابن المنير على هذا الرأي :

وقد شنع ابن المنير على من يقول بواو الثمانية هذه ولم يرضه ، وناقش أدلتهم وانتهى من المناقشة بأن ما زعموه من وجود واو ثمانية في اللغة العربية غير مُسلم ، وأن كل واو جاءت في موضع مما يستدلون به هي لغير ما يرون ، فالواو في : ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ للربط بين الصفتين المتعاطفتين ، ويؤيد رأيه بأن هذه الواو صاحبت هاتين الصفتين في جميع استعماليهما مثل : ﴿ وَأُمِرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (لقمان: ١٧) . و﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (التوبة: ٧١) ، والواو في قوله تعالى : ﴿ تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا ﴾ للتقسيم ، ولو حذفت لذهب المعنى المراد .

(١) واو الثمانية هي التي تعطف الثامن على السابع .

يقول ابن المنير مستخلصاً من كل ما سبق : « فقد وضع أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة لغير ما زعمه هؤلاء ، والله الموفق »^(١) .

● إضافة :

ونضيف إلى ما ذكره ابن المنير ما يأتي :

إن الواو كما دخلت على : ﴿ وَالنَّاهُونَ ﴾ دخلت على ﴿ وَالْحَفِظُونَ ﴾ وهي التاسعة فهلا قالوا بأنها واو التسعة ، مشابهة لتلك ؟ وحيث لم يسغ لهم هذا القول فما الفرق - إذن - بين الواوين الداخلتين على : ﴿ وَالنَّاهُونَ ﴾ ، ﴿ وَالْحَفِظُونَ ﴾ ؟

أرى أن ليس فيما ذكره حجة لهم على هذه الواو المدعاة .

ويوجه الزمخشري - فيما يذكر - التعبير ، فيقول : « إن هذه الواو هي التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للزكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة ، وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف .

وإن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا : ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِيهِمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قالوا عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس ، ولم يرجعوا بالظن كما رجم غيرهم .

والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله : ﴿ رَجَمًا بِالْغَيْبِ ﴾ وأتبع القول الثالث قوله : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾^(٢) .

وأقول : إن الذي ذكره الزمخشري توجيه صائب ، ورأي سديد لائق بكتاب الله تعالى ، وأنا مع مَنْ ينكر أن هذه الواو تسمى واو الثمانية ؛ لأنه حتى ولو سلمنا به لاحتاج الأمر إلى توجيه آخر هو :

لماذا اختصت اللغة العربية الثمانية بهذه الواو دون غيرها من الأعداد ؟

(١) على هامش تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٥٧/٢ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٥٧/٢ (بتصرف في الصياغة) .

وأظن أن محاولة توجيه هذا الجعل الأخير لا يخرج عن تعليقات ليس تحتها طائل .

• موضع ثالث لحذف الواو :

ومن أمثلة حذف الواو وذكرها أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ (الحجر: ٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٠٨) .

فالموضعان متماثلان ، وقد ذكر الواو في الأولى ، وحذف في الثانية .. فما السر ؟

وقد رد ابن الأثير المسألة إلى مجرد الجواز من حيث الصناعة النحوية، قال : « اعلم أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد «إلا» ، يجوز إثبات الواو في خبره وحذفها ، كذلك قولك : ما رأيت رجلاً إلا وعليه ثياب ، وإن شئت قلت : إلا عليه ثياب - بغير واو »^(١) .

وكلام ابن الأثير على ما فيه من خلط بين الخبر والصفة لا يحل الإشكال لأن مجرد الجواز النحوي تخريج عام لا ينطبق على موضوعنا هذا إلا من وجه بعيد كما ترى .

ويقول الزمخشري : « هذه الواو ذكرت في آية الحِجْرِ لتفيد لصوق الصفة بالموصوف على نحو ما كان في قوله تعالى : ﴿ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ كَلِيمٌ ﴾ (الكهف: ٢٢)^(٢) .

• هل توجيه الزمخشري مقنع ؟

وكلام الزمخشري على ما فيه من قرب إلى الصواب حيث حلل الفكرة تحليلًا مباشرًا ولم ينزلها على تخريج عام - مع هذه الاعتبارات كلها - لا يقنع

(١) المثل السائر لابن الأثير : ٣٣٠/٢ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤٤٤/٢ .

الباحث لأنه يرد عليه سؤال مؤداه : لماذا رجح لصوق الصفة بالموصوف في الآية الأولى .. ورجح عدم لصوقها في الثانية ؟

والذي أراه في توجيه المسألة - بعد موافقة الزمخشري على أن الواو مفيدة للصوق الصفة بالموصوف - أن المقام في الأولى يقتضي التأكيد بخلاف الثانية ؛ لأن الصفة المراد إثباتها في الأولى كون القرابة ذات كتاب سابق قد أنزل على رسولها لا الكتاب المحفوظ المقدّر فيه أجلها - كما يقول الزمخشري - وذلك لأن الآية تهدف إلى أنهم أنذروا ولم يؤخذوا ظلماً .

والصفة المراد إثباتها في الثانية كون القرية ذات منذرين ، و فرق بين الكتاب والمنذرين ، لأن الكتاب ليس له من قوة الظهور ما للرسول ، لذلك كان المقام في الأولى مقام تأكيد ، وفي الثانية - أعني ظهور المنذرين - لأنهم جماعة من الناس فهم في غنى عن التأكيد الذي احتاجت إليه الأولى ، فكان الذكر والحذف من أجلهما .

● حذف حرف الجر « الباء » :

ومثل ذلك - في غير الواو - حذف حر الجر « الباء » في قوله تعالى : ﴿ جَاءُوا بِالْبَيْتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (آل عمران: ١٨٤) .

قوله تعالى : ﴿ جَاءَهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيْتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾

(فاطر: ٢٥) .

هذان موضعان متماثلان تمام التماثل ، وقد خولف بينهما ، فجاء التعبير في آية آل عمران بعطف ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ و ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ على ﴿ بِالْبَيْتِ ﴾ محذوفاً منهما حرف الجر « الباء » الداخلة على المعطوف عليه ، وهذا حسن وفصيح .

ثم جاء التعبير في آية فاطر مذكوراً فيه حرف الجر « الباء » في المعطوفين : ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ و ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ .

• توجيهي للمسألة :

ولم أر توجيهاً لأحد في هذا ... ولذلك فإنني أوجهه - فيما أرى - على النحو الآتي :

أولاً : إن ذكر الحرف في المواضع الثلاثة - المعطوف عليه ، والمعطوفين - جاء في سورة « فاطر » وهي مكة النزول ، فهي إذن أسبق وجوداً بين الناس بهذا الاعتبار فهي مؤسسة للمعنى الوارد فيها بخلاف ما في « آل عمران » ، لأن « آل عمران » مدنية النزول .

ثانياً : إن القوم في مكة يختلف حالهم عن القوم في المدينة من حيث الاستجابة إلى الدعوة والإسراع إلى الإيمان ، فأهل مكة أهل عناد وتحذ ، وأهل المدينة أهل إسلام وطاعة .

ثالثاً : هذان الاعتباران يفيدان أن المقام في مكة كان يقتضي التأكيد في المعاني لتقريرها ورسوخها لتتناسب مع حالة الإنكار التي كانوا عليها ، وعلى هذا جاء التعبير في « فاطر » المكية ، لأن تكرار حرف الجر في المواضع الثلاثة يشعر بتكرار المتعلق ، فكأنه قال : جاءوا بالبينات ، وجاءوا بالزبر ، وجاءوا بالكتاب المنير .

وخلا التعبير المدني من هذا التكرار لعدم الحاجة إليه لإسلام أهل المدينة وطاعتهم .

• صورة أخرى لحذف الحرف في القرآن :

وقد يأتي الحرف في القرآن محذوفاً على غير الصور السابقة ، ففيها كان الحرف المحذوف من الحروف التي ليست من بنية الكلمة ك « واو العطف » و « باء الجر » و « ياء النداء » ، أما ما نحن بصدد ذكره فهو حذف حرف من بنية الكلمة ، فتأتي في موضع آخر على صورة أخرى .

ونكتفي في هذا النوع بذكر مثال واحد .

قال سبحانه في سورة البقرة : ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨).

وقال في طه : ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (طه: ١٢٣) .

والشاهد في «تبع» و«اتبع» الأولى بدون همزة وبتخفيف الباء ، والثانية مقترنة بهما ، ولذلك سر فما هو ؟

• توجيهات العلماء للمسألة :

نقل عبد الغني الراجحي أقوالاً للأئمة في توجيه هذا التعبير ^(١) ..

الإمام البقاعي يرى أن المقام في « طه » مقام تحذير ونسيان فشدد الفعل حثاً على النشاط والجد وقد سبقه مباشرة : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ والمقام يتطلب أدنى اتباع وأقله ، وقد جاء جواب الشرط في الموضعين مناسباً لدلالة الفعل فهو في طه : ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ، وفي البقرة : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بنفي الضلال والشقاء في الأول ، والخوف والحزن في الثاني .

ويقول الأنصاري : إن القصة في « طه » بنيت من أولها على القوة والمبالغة والتوكيد فناسب آخرها أولها ^(٢) .

ويقول ابن جماعة : إن التشديد في « طه » للتصريح بمعصية آدم وقد سبقه الاتباع مشدداً في نفس السورة ^(٣) .

ويقول صاحب ملاك التأويل : « إن صيغة التخفيف في سورة البقرة حيث لم يتقدم في حكاية إغواء إبليس لآدم ذكر وسوسة الشيطان والاحتياال عليه ، وصيغة التشديد في « طه » حيث تقدمت وسوسة اللعين صريحة وسعة مكره

(٢٠١) المناهج الجديدة في تفسير آيات الله المجيدة : دكتور عبد الغني الراجحي ص ٧٨ .

(٣) يقصد قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ (طه : ١٠٨) .

واحتياله ، فكان المخفف بجوار ما لا تعمل فيه ، والمشدد بجواره ما فيه ذلك^(١).

هذا ما ذكره الراجحي عن الأئمة السابقين ، وكل هذه التوجيهات تبدو وجيهة لا ريب وما منها إلا وهو لائق بالمقام ، والنكات - كما يقولون - لا تتزاحم ، فلتكن كلها مرادة للحكيم سبحانه خاصة وأن ليس بينها تدافع .
أما رأي الراجحي نفسه في الموضوع - والذي أراه معه - فهو أن المشدّد كان مع أهل مكة ، والمخفّف كان مع أهل المدينة ، ولا ينكر أحد ما بين البيّتين من فروق ، وكيف أن القرآن كان شديداً في تعبيره مع أهل مكة ، رقيقاً فيه مع أهل المدينة .. ذلك هو منهج القرآن مع الفريقين .
ما سبق كان خاصاً بحذف الحرف في القرآن سواء أكان خارجاً عن بنية الكلمة أو داخلاً فيها ، وهي مثلٌ مضروبة لا على سبيل الاستقصاء .

ثانياً : حذف الكلمة المفردة

وخطة البحث هنا تجري على هذا النسق :

- (أ) حذف الفعل . (ب) حذف الفاعل . (ج) حذف المبتدأ .
- (د) حذف الخبر . (هـ) حذف الموصوف . (و) حذف الصفة
- (ز) حذف المضاف . (ح) حذف المضاف إليه .

١- حذف الفعل :

يأتي حذف الفعل في القرآن الكريم على ضربين :

- ١- ضرب يُحذف فيه الفعل دون تعويض ، ويبقى عمله من رفع ونصب .
- ٢- وضرب يُحذف فيه الفعل مع إقامة شيء مقامه ، وهو التعويض الذي نقصده ويكون الشيء المقام مقامه « العوض » على جهة الإبانة أو التفسير له ، وكل من هذه الأنواع لا يُصار إليها إلا لغرض بياني .

(١) المناهج الجديدة في تفسير آيات الله المجيدة ، دكتور عبد الغني الراجحي ص ٨٠ .

من ذلك حذف الفعل إذا وقع اسم مرفوع على الفاعلية بعد أدوات الشرط :
« إن » و « إذا » .

مثل ذلك مطالع سور التكوير والانفطار ، والانشقاق ، ومواضع أخرى
مثبتة في ثنايا السور المختلفة :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا
النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا
الْصُّحُفُ نُفِثَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝ ﴾ (التكوير: ١-١٤) .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ ﴾ (الانفطار: ١-٥) .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى
رَبِّكَ كَدًا فَمُلْقِيهِ ۝ ﴾ (الانشقاق: ١-٦) .

في « التكوير » حذف الفعل بعد أداة الشرط « إذا » في اثني عشر موضعاً ،
وولى الاسم مرفوعاً أداة شرط ، ثم فسر ذلك الفعل المحذوف بإعادته بعينه
بعد الاسم المرفوع ، والفعل المحذوف في هذه المواضع هو فعل الشرط^(١) ،
ويجب تقديره في مثل هذه الاستعمالات لأن أدوات الشرط مختصة بالدخول
على الأفعال دون الأسماء ، وذلك هو الأصح عند البصريين وبعض العلماء .

وفي « الانفطار » حذف الفعل بعد أربع أدوات للشرط ، وفعل فيه ما فعل
في سابقه .

(١) جرينا - هنا - على مذهب البصريين ، أما الكوفيون والأخفش - من البصريين - فيرون
خلاف ذلك .

وفي «الانشقاق» حذف في موضعين كذلك ، وفي كل بقى الفاعل مرفوعاً .
ودليل الحذف ما ذكرناه من مذهب البصريين من أن أدوات الشرط
لا تدخل إلا على الأفعال .

● سبب الحذف هنا :

ذلك هو الدليل .. فما هو السبب ؟

إنه حذف لإرادة التأكيد المستفاد من تكرار الإسناد ، فالفعل في قوله تعالى :
﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قد أسند إلى الفعل مرتين ، مرة - محذوفاً - إلى الظاهر
« الشمس » ومرة - مذكوراً - ضمير الفاعل « هي » .

فكأنه قال : إذا كُوِّرَت الشمس كُوِّرَت الشمس .. والمقام في كُلِّ يقتضي
التوكيد لغرابة الأفعال والظواهر المدلول عليها ، لأن الناس لم يشهدوا مثلها من
قبل ، ولن يشهدوا ذلك إلا مرة واحدة يوم البعث .

وفضلاً عن غرابتها في نفسها ومخالفتها للسنن المعهود - فإنها تتصل بقضية
البعث اتصالاً مباشراً ، والبعث كان - كما نعلم - مثار جدل ومبعث إنكار
والمناسب له التوكيد والتقرير ، وكان ذلك هو ما فعله القرآن ، وهذه السور
جميعها مكيات النزول .

وقد جاء ذلك في سورة التوبة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (التوبة: ٦) .. فقد
اقتضى المقام هنا التوكيد لأن استجارة المشرك بعدوه المسلم مما يُنكر
ويستغرب ، فخرج الكلام منخرج التوكيد .

قال الزمخشري : «أحد» مرتفع بفعل الشرط مضموراً يفسره الظاهر ..
تقديره : وإن استجارك أحد استجارك ، ولا يرتفع بالابتداء^(١) لأن «إن» من
عوامل الفعل لا تدخل على غيره ، والمعنى : إن جاءك أحد من المشركين بعد

(١) يرد بذلك على ما يراه الكوفيون والأخفش من البصريين .

انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن ، وتبين ما بعثت له فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ، ثم أبلغه من ذلك داره التي يأمن فيها ، إن لم يسلم»^(١) .

وترى أن الزمخشري لم يذكر سبب الحذف البياني ، وهو لا يخرج عما قلناه ، ويحذف الفعل أحياناً - ويعوّض عنه مصدره للدلالة على التأكيد كذلك ، وقد مثل له ابن الأثير بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَبْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ (محمد: ٤) .

فقد حذف الفعل وأقيم مصدره مقامه ، والمعنى : فاضربوا الرقاب ضرباً . قال ابن الأثير : «وفي هذا معنى التوكيد والمبالغة والاختصار»^(٢) وجرى الزمخشري على هذا التوجيه»^(٣) .

وقد ناب المصدر عن فعله في موضعين آخرين في هذه الآية : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ . إذ التقدير : فإما تمنون منّا ، وإما تفدون فداءً .. وفيهما ما في الأول ، ويبدو أن المقام مبني على الإيجاز لنزول هذه الآية في ظروف الحرب .

وقد يكون السر البياني في حذف الفعل هو الاختصاص كما في قوله تعالى : ﴿ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ۚ ﴾ ﴿ ١٦٧ ﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِمْ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠، ٤١) .

فقد حذف الفعل في الآيتين في فواصلهما : ﴿ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ﴾ و﴿ وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ ﴾ والمعنى : «إياي فارهبوا فارهبون ، وإياي فاتقوا فاتقون» .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٩٣/٢ وما بعدها .

(٢) المثل السائر لابن الأثير : ٣٠٢/٢ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٥١/٤ .

قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴾ هو من قولك : زيدا رهبت ، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من : ﴿ إِنَّا لَنَعْبُدُ ﴾^(١) .

فالاختصاص من تقديم المفعول « إياي » والتوكيد من تكرار الفعل المفسر ولعل هذا الفرق الذي قصد إليه الزمخشري بين : ﴿ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴾ ، و﴿ إِنَّا لَنَعْبُدُ ﴾ لأن « إياك » منصوب بالفعل بعده لعدم اشتغاله بسواه و﴿ إِنَّا لَنَعْبُدُ ﴾ يفيد الاختصاص - دون التوكيد - لعدم إرادة تقدير فعل قبل « إياك » .

• إيضاح :

وفي عدى حذف الفعل - هنا - لإفادة الاختصاص مجازاة لما ذكره الزمخشري والسيد وصاحب المطول « وإلا فالحقيقة أن الاختصاص مستفاد من تقديم المفعول لا من التكرار ، بدليل وجود الاختصاص مع عدم التكرار المفهوم من الحذف » .

والى هذا يشير السيد في حاشيته على المطول فيقول : « وقدم المفعول عوضاً عنه - أي عن الشرط المحذوف - على أحد الرأيين مع كون تقديمه مفيداً لأمرين آخرين : الاختصاص وصيرورة « الفاء » متوسطة في الكلام كما هو حقها ، فصار الكلام هكذا : « إياي فارهبوا ، ثم كرر الفعل تأكيداً وقصداً »^(٢) .

• حذف الفعل اكتفاءً بآخره :

وقد يُحذف الفعل لوقوعه في خبر فعل آخر لكل منهما معموله في الكلام ، ولقوة اختصاص ذلك المعمول بفعله ، ودليل الحذف في هذا النوع هو العرف اللغوي ، أو الشرعي .. فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ (يونس: ٧١) والتقدير : فأجمعوا أمركم ، وادعوا شركاءكم ، وقد جاء ذلك

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٧٠/١ وما بعدها .

(٢) حاشية السيد على المطول ، للسيد الشريف ص ١٩٩ - ط . الأستانة .

صريحاً في قراءة ابن مسعود وأبيّ ، فقد نص على ذلك الزمخشري^(١) ، وابن الأثير^(٢) .

فـ «أمركم» معمول «أجمعوا» .. و«شركاءكم» معمول الفعل المحذوف «ادعوا» ، والدليل هو العُرف اللغوي إذ لا يصح أن يتعلق «الشركاء» بإجماع الأمر والرأي .

أما السبب فيإيجاز مع تكثير المعنى ، وإخراج المعمولين المختلفي العامل مخرج المعمولين لمعمول واحد لسبق إجماع الرأي على دعوة الشركاء .. ولأن كلا الأمرين مطلوبان لموقف واحد هو أن يتحدثوا ما استطاعوا ضد نبي الله نوح عليه السلام ، ولينظروا بعد حشد كل ما يمكنهم من عوامل الانتصار من هو المنتصر ؟

والواو ليست عاطفة مفرداً على مفرد ، بل جملة على جملة - كما ترى - وعليه^(٣) جاء قول الشاعر :

"علفتها تَبّاً وماءً بارداً" - أي : وسقيتها ماءً بارداً

ومثله : «وزججن الحواجب والعيونا» . أي : وكحلن العيون ، لأن العُرف اللغوي يمنع من تشريك ما بعد «الواو» مع ما قبله في حكمه ، لأن الكل منهما متعلقاً خاصاً لا يصح تعليق الآخر به ، وجعل الفعل المذكور - في الظاهر - للمعمولين - وهو في الواقع لأحدهما ضرب من التعبير فيه خلافة وسحر .

ويرى الزمخشري أن «الواو» في الآية الكريمة ليست للعطف ، بل هي بمعنى «مع» ، ويرى أن مجيء الشركاء على هذا الوضع فيه معنى التهكم^(٤) .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٢٨/٢ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير : ٣٠١/٢ .

(٣) أي على العُرف اللغوي .

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٨٢/٢ .

وَكَيْلَا التَّوْجِهَيْنِ لَا يَأْبَاهُ الْأَسْلُوبُ .

ومثال ما دل على حذفه العُرف الشرعي دون اللغوي قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ (المائدة: ٦). بنصب : « أرجلكم » .

فـ « أرجلكم » معمول لفعل محذوف تقديره : واغسلوا أرجلكم ، فالذي دلَّ على الحذف وتعيين المحذوف - هنا - هو الشرع ؛ لأنه أفاد أن الرجل في الوضوء تُغسل ولا تُمسح كما يُمسح الرأس ، فلذلك لم يصح عطفها على « رءوسكم » لثلاث تشترك معها في الحكم وهو فاسد كما ترى ، ولم تُعطف على « وجوه » للفصل بين المتعاطفين .

ولعل السبب إخراج الأعمال التي يقوم بها المتوضى مخرج اليسر والسهولة فكان الحذف من أجل ذلك .

● الحذف للتحذير والإغراء :

وقد يُحذف الفعل لإرادة التحذير أو الإغراء .

فمثال الأول قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾

(الشمس: ١٣) .

أي : احذروا ، فحذف الفعل لما ذكر ، وللاختصار - مع كثرة المعنى .

ومثال الثاني قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا آهَتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٥) .

فحذف الفعل والتقدير : الزموا ، وعوض عنه اسم الفعل « عليكم » .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ (النساء: ١٧١) .

أي : انتهوا واصنعوا خيراً لكم^(١) ، فحذف الفعل دون تعويض وبقي معموله

(١) النحو الوافي : دكتور عباس حسن : ١٠٧/٤ ، وفي الآية وجوه أخرى .

منصوباً على الإغراء ، والسر البلاغي في الموضوعين هو ضيق المقام ، لئلا يصيبه مكروه في الأول ولئلا يفوته الخير في الثاني .

● حذف الفعل إذا وقع جواب سؤال :

وكذلك يُحذف الفعل إذا وقع جواب سؤال - أي ضمنه - لقيام القرينة على تعيينه .. وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(الزمر: ٣٨) .

وتقدير المحذوف فعلاً في الموضوعين أولى من تقديره خبراً ، ليتطابق السؤال مع الجواب ، ولأن الكثير الغالب في جواب الاستفهام حذف المبتدأ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ ﴿١﴾ نَارُ حَامِيَّةُ ﴾ (القارعة: ١٠، ١١) .

﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ ﴾ (الحج: ٧٢) ، والقول بأن الفعل المحذوف خبر جازئ وتقدير الجواب على الوجهين : « ليقولن خلقهن الله » ، و« ليقولن الله خلقهن » .

ويؤيد هذا ما ذكره ابن هشام^(١) عند تقدير المحذوف في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (الزخرف: ٨٧). حيث قال : « فلا يُقدَّر : ليقولن الله خلقهم ، بل خلقهم الله ، لمجىء هذا في شبه الموضع وهو : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: ٩) . وفي مواضع آتية على طريقته نحو : ﴿ قَالَ نَبِّأْنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (التحریم: ٣) . و﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ﴿٢﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (يس: ٧٨، ٧٩) .

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام : ٦٥/٢ .

ودليل الحذف أو مسوغه هنا كونه مذكوراً في سياق جواب السؤال .. وهذا السؤال قد اشتمل على الفعل نفسه .

● سبب هذا الحذف :

والسبب البلاغي لهذا الحذف هو - والله أعلم - توفير العناية باسم الجلالة الذي هو المقصود الأهم ، ولتكثر الفائدة لاختلاف التقدير كما رأينا .
وقد جاء في سورة الزخرف مصرحاً في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف: ٩) .
وهنا تبدو ملاحظة هامة ...

إن هذه السور الأربع التي ورد فيها هذا السؤال مكيات النزول ، وهذه مناسبة عامة لورود السؤال لما طُبِعَ عليه أهل مكة من جدل وعناد ، وإن السورة التي صرَّح فيها بالفعل في صدر الجواب - وهي لقمان - هي أول سورة نزلت من هذه السور الأربع ، ولذلك جاءت على الأصل ، بدون حذف شيء لأنها سورة مؤسسة ، وجاء الحذف فيما نزل بعدها اعتماداً عليها .

وهناك مواضع كثيرة حُذِفَ فيها الفعل في التنزيل الحكيم ، ولكنها لا تخرج في مجموعها عن التأكيد والتقريب والاختصاص ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (يس: ٣٩) .
وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (النحل: ٥) .

وخلاصة هذا الموضع : إن الفعل يُحذف - أحياناً - في القرآن الكريم لداع بلاغي ، وهذا الحذف يتوافر له الدليل القوي الدال عليه والسبب المرجح له ، فهو صنيع حكيم ، وفن جليل من فنون التعبير لا تجد فيه إلا حكمة وإصابة .

٢- حذف الفاعل :

الفاعل ركن أساسي من ركني الجملة الفعلية ، ولذلك يمنع النحاة حذفه لغير علة صرفية أو يمنعونه مطلقاً^(١) فالذكر هو الأصل فيه .

(١) انظر : الخضري ج ١ ، وحاشية الصبان على الأشموني ج ٢ . باب : « الفاعل .. موضع حذفه » .

فالعلّة التي من أجلها يحذفون الفاعل خاصة بما إذا كان الفاعل « واو جماعة » وقد أكد فعله بـ « نون التوكيد » أو « ياء المخاطبة » وقد أكد مثل سابقه ، والنحاة - غير الخضري والصبان - يوجبون الحذف في هذين الموضعين ، والجواز في سواهما^(١) ، أما هما فيريان المنع مطلقاً وقد جاء ذلك كثيراً في القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦) .

فقد حذف الفاعل وهو « واو جماعة » في : « تموتن » و « لتسمعن » ، لأنه التقى ساكناً مع نون التوكيد الساكنة « الأولى » فحذف للتخلص من التقاء الساكنين ، وبقي الضم دليلاً عليه .

ومثاله مع ياء المخاطبة : ﴿ فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ (مريم: ٢٦) .

هذا قياس مطرد في كل ما كان شأنه كذلك ، وقد نقلت الرواية العربية حذفه لغير هذا في موضعين :

● حذف الفاعل على غير قياس :

أحدهما : في قول العرب : أرسلت ، وهم يريدون جاء المطر ولا يذكرون السماء التي هي فاعل الإرسال .

وثانيهما : قول حاتم الطائي :

أَمَاوِيٌّ مَا يُغْنِي الشَّرَاءَ عَلَى الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

ومسوغ الحذف في الموضعين قرينة الحال القوية التي لا يلتبس معها معنى بمعنى ، ففي « أرسلت » الفاعل معروف وهو السماء ، لأن المطر لا يأتي إلا

(١) كما إذا كان الفعل مبنياً للمجهول أو كان عامله مصدرًا أو غيرهما ، واقتضى الحذف داع بلاغي . . انظر النحو الوافي : دكتور عباس حسن : ٥٩/٢ .

من جهتها ، وفي « حشرجت » الفاعل معروف هو « النفس » لأنه لا يُحشرج ساعة الموت إلا هي^(١) .

وقوة القرينة أمر هام بنوا عليه كثيراً من الأساليب والأحكام اللغوية كتركهم علامة التأنيث في الصفات الخاصة بالمؤنث والتي لا يشاركه فيها المذكر ، مثل : حامل ، ومرضع ، وحائض .

● مماثلة عجيبة :

ومن روائع الصدف : أن حذف الفاعل جاء في القرآن الكريم - في غير ما ذكر - في ثلاثة مواضع منها موضعان شبيهان بالموضعين اللذين حذف فيهما عند العرب في المثالين المذكورين .

فالأول قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْثَمَ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٨٣، ٨٤) . ففاعل « بلغت » هو النفس ولم يجر لها ذكر قبل حتى يُقال إنها مضمرة ، وهذا شبيه ببيت حاتم إذ الفاعل هناك النفس والفاعل هنا النفس ، وكلاهما حديث عن ساعة الاحتضار ، وهي القرينة الحالية التي دلت على الحذف وعيئت المحذوف .

ومثله قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾

(القيامة: ٢٦، ٢٧) .

والموضع الثالث هو قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (ص: ٣٢) ، ففاعل : « توارت » هو الشمس في أرجح الأقوال^(٢) .

والشمس أكبر مظهر من مظاهر الطبيعة تسير في مسار ونظام دقيق لا يتخلف ، وهي أشرف وأعظم الأفلاك .. فحذفت في الآية لقوة ظهورها كما حذفت السماء في قول العرب السابق : « أرسلت » لأنها مثل الشمس ظهوراً

(١) انظر المثل السائر لابن الأثير : ج ٣ : « حذف الفاعل » .

(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشري : ٧٢/٤ .

وعظمة ، وقوة القرينة مع الاختصار مرجح للحذف على الذكر لأن حذف ما يُعلم جائز ، كما يقول ابن مالك .

فهل بعد قوة القرينة من سبب بلاغي آخر للحذف أو لترجيحه على الذكر في هذه المواضع ؟

● سبب حذف الفاعل فيها :

إن السر البلاغي لهذا الحذف - فيما أرى - هو ضيق المقام ، إذ المقام في الأولين وصف ما يعترى المحتضر من عوارض الموت ، وفي الثالث المقام مقام شكوى وندم .

وقد سوَّغت قوة القرينة الحذف في موضع آخر وهو قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ (القيامة: ٢٨) . ففاعل «الظن» هو المحتضر إذ المقام يعنيه دون سواء ، وقد عبر عن شعور المحتضر بالظن دون اليقين ، لأنه لا يعلم مجيء الأجل إلا الله وإن قويت علامات الموت عند الناس ، فقد يتخلف ظنهم .

● موضعان آخران لحذف الفاعل في القرآن :

وفي القرآن الكريم موضعان آخران حُذِفَ فيهما الفاعل .

أحدهما : قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْعُمُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٤) . وقد اختلفَ في الفاعل هنا فبعضهم يرى أنه : «بينكم» ويقرأه حينئذ بالرفع بدل النصب على الظرفية المكانية ، وعليه فلا حذف . وبعضهم يرى : أن الفاعل محذوف تقديره الأمر - مثلاً - حذف لقوة وإيحاء الفعل به ^(١) .

والموضع الثاني : ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَآيَاتِ لَيْسَ جُنْدُهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (يوسف: ٣٥) ، فالفاعل محذوف وهو المصدر المتصيد من الفعل ، والتقدير : ثم بدا لهم سجنه ، وهذا أليق من تقديره : ثم بدا لهم البدء ، لأن الفعل المذكور : «ليسجنه» أقوى دلالة على الفاعل المحذوف .

(١) من بلاغة القرآن : دكتور أحمد أحمد بلوي ص ١٦٩ .

• وما سر الحذف إذن ؟

أما الأول فأرى سر الحذف فيه إرادة التعميم ، ليقدرُوا ما شاءُوا من صلوات تعطلت كانت قوية بينهم ، أو أي أمر كان يجمعهم إلى آخر ما يحتمله المقام . وفي الثاني وضعوا الفعل موضع الفاعل لدلالة الفعل على الاستقبال لأنه حال التفكير في الأمر واستقرارهم على أن يسجنوه لم يكن سجيناً ، وإنما سُجِنَ بعد إجماعهم على هذا الرأي ، ودلالة الفعل على الاستقبال ظاهرة ، ولو قال : « بدا لهم سجنه » لفات هذا المعنى .

ومعنى آخر صالح له الفعل دون الاسم هنا هو : أن الفعل أمكن معه تصوير حالتهم النفسية وإجماعهم الأكيد على سجنه وأنهم لن يستبدلوا به أمراً آخر أخف منه فدخلت على الفعل لام القسم ونونه ، والاسم « سجنه » غير صالح لهذه الدلالات بداهة .

والدكتور أحمد أحمد بدوي يرى أن الحذف لمجرد أن الفعل شديد الإيحاء بالفاعل ، هذا صحيح ولكن ما رأيناه بجانب هذا أولى فيما أظن .

٣- حذف المبتدأ ، وحذف الخبر :

حذف أحد ركني الجملة الاسمية - المبتدأ أو الخبر - كثير شائع في الكلام العربي الفصيح وليس لديهم محذور في حذف أيهما إذا دلت عليه قرينة ، واقتضاه داع بلاغي أو صناعي .

وحذفهما له أحوال شتى عند النحاة ، فقد يكون واجباً ، وقد يكون جائزاً .. وقد حققوا كل هذه المواضع ووضعوا أصولها وقواعدها .

وهذا بخلاف حرصهم الشديد على عدم الحذف في الجملة الفعلية ، إذ يرون أن ذكر الفاعل - دائماً - واجب إلا فيما ذكرناه ، والفعل الأصل فيه الذكر ، وليست هناك حالة واحدة يجب فيها حذفه فالأمر فيه دائماً محمول على الجواز .

فنظرتهم إلى ركني الجملة الفعلية غير نظرتهم إلى ركني الجملة الإسمية - كما رأينا - ولم أجد توجيهاً لأي أحد في سبب اختلاف النظرتين ، وإن كنت أرى أن الرابطة بين الركنين في الإسمية رابطة متكافئة ، فليس أحدهما فيها بأظهر من الآخر .

أما الرابطة بين الركنين في الفعلية فغير متكافئة ، لأنها ملحوظة في الفاعل بدرجة أقوى إذ هو موجد للفعل ، فيكون في حذفه إجحاف بالمعنى فلم يترخصوا فيه .

وفي القرآن الكريم مواضع متعددة وكثيرة جداً لحذف المبتدأ ، أو الخبر ، أو هما معاً .. وفي كل موضع حدث فيه حذف من هذا النوع فالحذف فيه سواء أكان واجباً - كما ترى الصناعة النحوية - أو جائزاً .. فهو أحسن من الذكر .

خذ إليك - مثلاً - قوله تعالى في مطلع سورة البقرة : ﴿ اَلَمْ يَكُنْ لَهُ رِيبٌ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١-٢) . فقد جاء فيه المبتدأ محذوفاً قبل قوله « هدى » والتقدير : « هو هدى » .

فلماذا الحذف ؟

أرى أن سر الحذف - هنا - أمران :

أحدهما : الإشعار بالاتصال المباشر بين « الكتاب » و « هدى » بعد جملة الاعتراض ولو ذكر فليل : هو هدى ، لزال هذا الاتصال ، لأنه مع الذكر يكون « هدى » خبراً عن ضميراً لكتاب ، ومع الحذف فإن أول ما يقع في الذهن أنه صفة مباشرة له ، وكم بين هذا الكتاب وبين الهدى من اتصال ، حتى أوتر إنه هو الهدى نفس الهدى ، ولم يقل : « هادياً » مثلاً .

ثانيهما : أن ذكر المبتدأ - هنا - يؤدي إلى نوع من الثقل اللفظي حيث يصبح التركيب : « فيه هو هدى » لاجتماع ثلاثة هاءات لم يفصل بينها إلا حرف واحد ، والهاء من حروف الحلق ، وحروف الحلق معروفة بالثقل .

هذا ما أراه ، وأرى في الوقت نفسه أن هذين الاعتبارين أولى مما ذهب إليه الدكتور أحمد أحمد بدوي من أن سر الحذف فيه خشية أن يبعث في النفس السامة والملل لشدة وضوحه ^(١) .

ويحذف المبتدأ - كذلك - إذا وقع في سياق تقدم ذكره فيه ، فتكون إعادته تكراراً لم تدع إليه حاجة ، وأمثلة ذلك كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ ٧٠ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ٧١ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٧٢ (المزمل: ٧-٩) .

وقوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٧٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ٧٤ لَا تُتَّقَى وَلَا تَذَرُ ٧٥ لَوْاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ٧٦ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٧٧ ﴾ (المدثر: ٢٦-٣٠) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٧٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ ٧٩ نَارٍ حَامِيَةٍ ٨٠ ﴾

(القارعة: ٩-١١) .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ٨١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ٨٢ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ٨٣ ﴾ (الهمزة: ٤-٦) .

وتقديم النظم في الآية الأولى : « وهو رب المشرق » .. وفي الثانية : « هي لا تبقى » .. « هي لواحة » .. وهكذا بقية النصوص .

وليس مجرد قوة الظهور هي السر في هذا الحذف ، إذ لنا في المثال الأول : « هو رب » أن نقول : إن الخبر المذكور لا يصح إسناده إلا لضميره ، لأنه ليس للمشرق والمغرب رب سواه وحذف المبتدأ محقق لتكثير الفائدة ، إذ يجوز تقدير كلمة « رب » خبراً لمبتدأ محذوف هو « هو » ويجوز اعتباره بدلاً من « رب » الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ (المزمل: ٨) ، قال الزمخشري في تفسيره : قرئ - يعني « رب » الثانية - مرفوعاً

(١) انظر كتابه : من بلاغة القرآن ص ١٢٠ .

على المدح ، ومجروراً على البذل من « ربك » ، وعن ابن عباس : عن القسم بإضمار حرف القسم ، كقولك : الله لأفعلن ، وجوابه : لا إله إلا هو ^(١) .

فهذه معان ثلاث احتملها المقام بسبب الحذف .. ولو ذكر المبتدأ لاقتضى المعنى عليه دونما سواه .

وفي الأمثلة الثلاثة الآخر ، تقدم ذكر النار في أسماء لها وصفات ، فصارت ماثلة في الذهن ، لأنها عظيمة الشأن ، تملأ النفوس رهبة ورغبة ، رهبة من الوقوع فيها ، ورغبة في النجاة منها ، فكان هذا كافياً في حضورها في الذهن عند الحديث عنها ، وفي هذا الحذف ترهيب لا يخفى أثره .

وفيه كذلك تعجيل المساءة لهم ، حيث حذف الضمير « هي » وعوجلوا بذكر النار أو بصفة من صفاتها المقبضة مثل : ﴿لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ .

• أسباب أخرى لحذفهما :

ويحذف الخبر كذلك عند ظهوره وسهولة تعيينه مثل قوله تعالى : ﴿وَالَّتِي يَسِّنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُنَّ ثَلَاثُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ تَحِضْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤) .

فقد حذف الخبر من قوله تعالى : ﴿وَالَّتِي لَمْ تَحِضْ﴾ والتقدير : واللائي لم يحضن كذلك أو مثلهن ، فيكون الخبر محذوفاً وحده .

أو التقدير : فعدتهن كذلك ، فيكون المبتدأ والخبر محذوفين .. والذي سوغ الحذف هنا هو العطف بالواو ، لأن العطف يشرك المعطوف عليه فيما ثبت له من الإعراب والحكم .

ولذلك صرح بالخبر بعده في قوله تعالى : ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ لاختلاف أجل الحامل عن أجل غيرها : مَنْ هي يائسة من

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٥١٢/٤ .

المحيض ، أو مَنْ لم تحض ، فذكر الخبر هنا واجب لأن حذفه يؤدي إلى فساد المعنى .

كذلك ورد حذف الخبر في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۖ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر: ٢٢) .

وقبله حذف من نفس السورة « الزمر » في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءِأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤُلَاءِ الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٩) .

وكذلك جاء في سورة « فاطر » في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۚ فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر: ٨) .

هذه مواضع ثلاثة حُذِفَ فيها الخبر ، وفي « فاطر » قدَّرَ الزمخشري الخبر بقوله : « أفمن زُيِّنَ له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يُزَيَّنْ له »^(١) ؟

وتابعه النسفي على هذا التقدير ، ثم نقل عن الزجاج تقديرين آخرين ، قال : « وذكر الزجاج أن المعنى : أفمن زُيِّنَ له سوء عمله ذهب نفسك عليه حسرات ، فحذف الجواب لدلالة : فلا تذهب نفسك عليه .

أو : أفمن زُيِّنَ له سوء عمله كمن هداه الله ، فحذف الدلالة : فإن الله يضل من يشاء ويهدي مَن يشاء عليه »^(٢) .

وأقوم هذه الآراء - فيما أظن - الرأي الثالث مع احتمال الأسلوب لها جميعاً ، ولعل هذا هو سر الحذف في هذه المواضع : أن تختلف وجهات النظر فيكثر معها المعنى ويتعدد .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤٧٣/٣ .

(٢) تفسير النسفي : ٣٣٦/٣ .

أما الموضوعان اللذان في « الزمر » فقد قدر الخبر فيهما على النحو الآتي :

« أفمن هو قانت كغيره ، ثم : أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن لم يشرح صدره » ؟ ^(١) ، وإذا قارنا بين المواضع الثلاثة نجد أنها :

أولاً : تنكر المساواة بين فريقين مختلفين في العقيدة والسلوك ، وفي المنزلة عند الله .

ثانياً : أنها - جميعاً - صدرت بحرف الاستفهام الإنكاري .

ثالثاً : أن المحذوف فيها ظاهر تعيينه لدلالة الكلام عليه ، وإن اختلف فيه أحياناً ، والحذف مما يُمكن المحذوف من النفس بعد البحث عنه والتوصل إليه .

وهكذا فقد اجتمع للحذف في هذه المواضع : المسوغ والمقتضى .

وكذلك جاء حذف الخبر في قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (المائدة: ٥) .

أي : حِلٌّ لكم . وقد أغنى عن ذكره التصريح به مرتين في صدر الآية ، فكان في حذفه حسن الدلالة مع الإيجاز وعدم التكرار .

• حذف الخبر مع « لا » النافية :

ومن المواضع التي كثر فيها حذف الخبر « لا النافية للجنس » مثل قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَا صَبِيرٌ ﴾ (الشعراء: ٥٠) أي علينا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا فَوْتَ ﴾ (سبأ: ٥١) : أي لهم .

فالمحذوف في هذا كله الخبر إلا في آية اليائسات من المحيض فقد صح كون المحذوف الخبر وحده ، أو هو مع مبتدئه .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٩٠/٤ .

وهناك موضع آخر يصح فيه تقدير المحذوف - خبراً ، أو مبتدأ - وهو الواقع بعد «الفاء» الواقعة في جواب شرط .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥) .

وقوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ (النساء: ٩٢) .

وقوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ (المجادلة: ٤) .

ومثله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (يوسف: ١٨) .

ففيما عدا الأخير جاز التقدير أن يكون هكذا : فالواجب : عِدَّةٌ من أيام أخر ، أو : فَعِدَّةٌ من أيام أخر واجب صيامها ، وهكذا البواقي .

وفي الأخير يقدر : فأمرى ، أو شأني صبر جميل ، أو : صبر جميل أمثل ، وأنت ترى أن تكثير المعنى مع الإيجاز مصاحب لهذه الأساليب مع خلوها من الإجحاف والجور على المعنى .

٤ - حذف الموصوف وحذف الصفة :

جاء حذف الموصوف في الكلام الفصيح كثيراً وهو أكثر من حذف الصفة لأنه أقوى منها ، وجاء ذلك في القرآن الكريم على صور متعددة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطُرْفِ أُنْتَابُ ﴾ (ص: ٥٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّا لَهُ الْحَدِيدُ ۖ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ ﴾ (سبأ: ١٠، ١١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ (التوبة: ٨٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (البينة: ٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ (الأنعام: ٣٢) .

هذه مواضع حذفت منها الموصوف ، لأن التقدير في الأولى : حور قاصرات الطرف .. وفي الثانية : دروعاً سابغات ، وفي الثالثة : ضحكاً قليلاً وبكاءً كثيراً ، وفي الرابعة : المِلة القِيمة ، وفي الخامسة : الحياة الآخرة .

وأرى أن السر البلاغي في حذف هذه الموصوفات - مما ذكرناه وما لم نذكره وهو كثير - هو توفير العناية بالصفة لأنها المطلوبة .
فقصر الطرف هو دليل العفة المطلوبة في كل امرأة .

والظاهر في الثانية الاهتمام بجودة الصنعة لأن المطلوب أن تكون الدرع سابعة لا مجرد درع ، فأقيمت هذه الصفة التي هي محل العناية من كل درع مقام الموصوف .

كذلك فإن القلة من الضحك ، والكثرة من البكاء هما المطلوب إثباتهما دون مجرد الضحك أو مجرد البكاء .

و«القيمة» وصف حاز كل فضيلة فليس المراد كلمة «مِلَّة» لأن هذه تُطلق على كثير من العقائد الضالة وغيرها ، إنما المطلوب الوصف «القيمة» وهو ما يفصل بين ما هو حق وما هو باطل ، فهو بالعناية أولى .

وكثيراً ما اجتزئ بالآخرة - وهي صفة - عن الحياة وهي موصوف في التعبير القرآني كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (الضحى: ٤) ، وإذا كثر اتصاف الشيء بصفة واشتهر بها صلحت لأن تقوم مقامه ، وهذا الوصف «الآخرة» هو الفاصل بين الحياتين : الأولى والآخرة ؛ لأنهما جميعاً يشتركان في مطلق حياة ، فكان لهذا الوصف الذي لا اشتراك فيه فضيلة ليست لغيره .

لذلك نرى القرآن يفرق بينهما حتى فيما هما مشتركتان فيه من لفظ «الحياة» إذ يقول: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٤) . فزاد في بنية الكلمة زيادة تفيد المبالغة في إثبات المعنى ، فكاد يسلب عن الحياة الأولى معنى الحياة ، ويفيد - في نفس الوقت - أن الحياة الحقيقية إنما هي الآخرة .

وهكذا تجد في كل موضع حذف في الموصوف وأقيمت الصفة مقامه لم يكن الحذف اعتباطاً - كما يقال - ولا قسراً ، وإنما هو لسر يبدو فيه توفير العناية بالصفة لأمر يقتضي ذلك .

أما حذف الصفة فدون حذف الموصوف ، لأنها عرض لا تدل على نفسها إلا بذكرها ، فمن حذف الصفة في القرآن قوله تعالى : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (الكهف: ٧٩) . أي صالحة .

وقوله تعالى : ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأحقاف: ٢٥) . أي أتت عليه .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ (البقرة: ٧١) . أي الواضح .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ (الزخرف: ٤٨) . أي السابقة ... وأسباب الحذف فيها واضحة .

فحذف صفة السفينة : « صالحة » فيه مبالغة في تصوير طمع الملك واستيلاءه على كل سفينة حتى ولو كانت غير صالحة ، فغير الصالح داخل في مأخوذ الملك ، هكذا يخیل الحذف ، ولو ذكر الوصف لزال هذا التخیيل .

وهذا التوجيه أراه أكثر قيمة مما ذكر الدكتور أحمد أحمد بدوي إذ يقول : « وقد أوحى إلينا هذا الحذف بأن الملك ينظر إلى السفينة المعيبة كأنها قد فقدت حقيقتها »^(١) .

لأن هذا التوجيه غير مبين لسبب الحذف ، والمعنى الذي ذكره مفهوم من ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وليس من الحذف .

والحذف في وصف الريح أفاد أن قوة الريح تمكنها من تدمير كل شيء سواء أتت عليه أو لم تأت عليه فتأثيرها ممتد إلى كل شيء ، ولو ذُكرت الصفة لزال هذا التخیيل .

وهكذا يمكن فهم الحذف في كل موضع على أساس يخدم المعنى ولا يضره .

٥- حذف المتضايين :

يحذف المضاف كثيراً كضرب من التوسع في اللغة ، وإيراد المعنى في قليل من اللفظ لأن المضاف إذا حُذف سهل تصوره .

(١) من بلاغة القرآن الدكتور أحمد أحمد بدوي ص ١٢٤ .

قال الأعشى :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرْمَدًا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدًا
فحذف في البيت مضافان : مضاف إلى « ليلة » ، ومضاف إلى « أرمد »
والمعنى : اغتماض ليلة رجل أرمد^(١) .

وقال الكلجة اليربوعي :

فَأَذْرَكَ إِرْقَالَ الْعَرَادَةِ ظُلْمَهَا وَقَدْ جَعَلْتَنِي مِنْ خُرَيْمَةٍ أَصْبَعًا^(٢)
والتقدير : ذا مسافة أصبع ، فحذف من الكلام مضافان متجاوران .

وهذا في كلامهم لا حصر له .. وكذلك جاء حذف المضاف في القرآن
الكریم ، ومنه : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر: ٢٢) ، و﴿ فَأَتَى اللَّهَ
بُنْيَنُهُمْ مِنْ آلْقَوَاعِدِ ﴾ (النحل: ٢٦) ، و﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾
(النساء: ٢٣) ، و﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ ﴾ (المائدة: ٣) ، و﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ ﴾
(النساء: ١٦٠) ، و﴿ وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾
(يوسف: ٨٢) ، و﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (الأعراف: ٨٥) ، و﴿ وَكَمْ مِنْ
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ (الأعراف: ٤) .

هذه نصوص من القرآن الكريم حُذِفَ فيها المضاف ودليل الحذف واحد في
الجميع هو عدم صحة تعلق الحكم المستفاد من السياق بالمذكور في اللفظ .

فالجائي : أمر ربك لا ربك ، لاستحالة ذلك عقيدة ، والآتي البنيان من
القواعد : أمر الله لا الله نفسه ، والمحرم : الاستمتاع بالأمهات لا ذواتهن ، وأكل
الميتة ، والطيبات : لا ذوات الميتة أو الطيبات .

والمستول : أهل القرية ، وأهل العير لا القرية نفسها ، ولا العير نفسها ،
والمرسل إليه شعيب : أهل مدين لا مدين ... وهكذا .

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام : ٦٢٤/٢ .

(٢) نسب ابن هشام البيت في المغنى إلى رؤية . والصحيح ما أثبتناه نقلاً عن المفضليات .

والذي يهمننا في هذه المواضع السر البلاغي في الحذف لا تقصى أمثلته ،
والذي أراه في هذه العبارات وما أشبهها من كل موضع حُذِفَ فيه المضاف
وأُقيم المضاف إليه مقامه : أن سر الحذف فيه بلاغياً هو إظهار المعنى في
صورة أتم وأوضح ، وعلى وجه أقوى وأشمل .

● مناقشة مثالين :

أولهما : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

هذه مقولة أخوة يوسف لأبيهم عندما أرادوا أن ينبئوه نبأ سرقة بنيامين
أخيهم صواع الملك .

وسبق أن نبأوه نبأ فقد يوسف شقيق بنيامين بأن الذئب أكله فحصل عنده
- أي أبيهم - شك فيما قالوا .

لكنهم في هذه الحالة الأخيرة صادقون ، وهم يعلمون أن هذا الخبر سيفجر
في نفس أبيهم كثيراً من هواجس الريب والظن ، فالمقام مقام اتهام لهم وإنكار
لما يقولون .

فأرادوا أن يُعَبِّروا عن صدقهم وأنهم في هذا الخبر صادقون ، فبالغوا في
تصوير صدقهم وادَّعوا أن أمر السرقة شاع حتى إن القرية كادت تعلم به ولو
سألته لأجابت فما بالك بأهلها ؟ وحتى إن العير - التي هي حيوان أعجم -
كادت تفقه أمر هذه السرقة لكثرة ما ترددت على الألسنة فلو سألته لأجابت
بما نقول ، فما بالك براكبيها ! فالسر - إذن - وراء هذا الحذف هو قصد
المبالغة واشتهار أمر السرقة بدرجة لم يستقم معها شك أو تكذيب .

وأما المثال الثاني فهو قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا
بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (الأعراف: ٤) .

وقد أجمع المفسرون على أن المراد : أهل قرية ، وهذا صحيح ، ولكن
لماذا حذف المضاف إليه ؟

والجواب : إن الله تعالى ينذر الناس بأن المخالفين منهم سيحل بهم سوء المصير ، وضرب لهم من قصص السابقين مثلاً ليكون لهم فيها عظة .
ومقام الإنذار يتطلب التهويل والتعظيم في عرض ما حدث أو ما سيحدث ،
لأن الإنذار مراد به التخويف ليرتدع المخالفون .

ولما كان الأمر - كذلك - فقد صورَّ الله في هذه الآية ما نزل بأهل القرى السابقين تصويراً فيه شدة وهول ، فجعل الهلاك واقعاً على القرية نفسها بما فيها من زروع وأنهار - وجبال ومنازل وكل ما يتصل بها ، وإذا كان الهلاك بالغاً هذا الحد فما بالك بأهل تلك القرى التي هلكت في أنفسها . إنهم - لا شك - أكثر هلاكاً وأكثر بوراً .

والدليل على أن هدف الآية ما ذكرناه من التهويل والتعظيم في تصوير ما حدث أنها صُدِّرت بـ «كم» الخبرية التي معناها الكثرة في العدد ، وجاء حذف المضاف مفيداً للتهويل في الكيف .
فهو على نمط : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مریم:٤) في إفادة المبالغة والشمول .

ولنا أن نعتبر هذه العِلَّة في كل الأمثلة التي فيها حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ففي : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ (النساء:٢٣) . أي الاستمتاع بهن ، يحمل سر الحذف على إرادة العموم في المفعول ، فيكون المحرَّم كل ما لا يليق بهن من عقوق وحرمان ، وإساءة في قول أو عمل .
وهذه الأمور وإن حُرِّمَتْ بطُرق أُخرى فإن احتمال المقام لها على أنها داخلية في جملة المحرَّم هدف من أهداف الأسلوب الحكيم .

هذا في حذف المضاف ..

أما حذف المضاف إليه فدونه في الورد ولكنه مثله من حيث إنه دال على معان كان حذفه من أجلها بلاغة .

ويكثر حذف المضاف إليه إذا كان ياء المتكلم والمضاف منادى ، كما في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ (الأعراف: ١٥١). فقد حذف المضاف إليه ، وهو «الياء» ، والمضاف وهو «رب» منادى كما ترى ، وقد اجتزئ عنه بالكسرة .

وحذف كذلك في المواضع الآتية :

قال تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٣٥﴾ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٣٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٣٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿٣٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿المؤمنون: ٩٣-٩٩﴾ .

في هذا النص الحكيم حذف المضاف إليه ، وهو ياء المتكلم ، والمضاف منادى وهو ما جاء عليه الحذف في الآيات إلا في موضع واحد منها وهذا جائز في اللغة .

ولكن الجواز اللغوي لا يفسر لنا السر البلاغي ، فتلك قاعدة نحوية عامة والمقاصد البلاغية اعتبارات خاصة ، فما هو السر البلاغي إذن ؟

• وجه لحذف ياء المتكلم مع «رب» :

وجه السر أن كلمة «رب» لا تحتاج في نسبتها إلى المتكلم إلى تلك العلامة اللفظية «الياء» فهو رب كل شيء سواء أضيف أو لم يضاف ، وقد حرص القرآن الكريم على أن يستعمل هذه الكلمة محذوفاً منها ضمير المتكلم المضاف إليه في أغلب مواضعها .

هذا من حيث المعنى .. ووجه آخر من حيث اللفظ : لما كانت هذه الكلمة «رب» تستعمل كثيراً في النداء روعي فيها وجه الخفة ، بحذف ما تضاف إليه إلا أن يكون ما تضاف إليه اسماً ظاهراً غير ضمير المتكلم ، فإن الإضافة لا تكمل إلا بذكر المضاف إليه كقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٦) .

ولأن قوة القرينة مع الإضافة إلى ياء المتكلم ساعدت على أمر الحذف ، بخلاف غيره ، ويكثر - كذلك - حذف المضاف إليه في القرآن الكريم ، بعد الظروف والغايات مثل : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ (الروم: ٤) ، وبعد « كل » و « بعض » مثل : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠) .

وقوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (البقرة: ٣٦) . وكذلك بعد « أي » . مثل قوله تعالى : ﴿ أَيُّهَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (الإسراء: ١١٠) .

وقد يُحذف في غير هذه المواضع كما جاء في بعض القراءات نحو قراءة مَنْ قرأ : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ (البقرة: ٣٨) . فيمن ضم ولم يُنَوِّن - أي فلا خوف شيء عليهم ، كما قرئ : ﴿ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (الزمر: ٧٣) أي سلام الله عليكم ، أو على إضمار آل^(١) .

وهذه المواضع مما يظهر فيها أمر الحذف والتقدير ، وهو فضلاً عن كونه من التوسع في اللغة فإن فيه فضيلة الإيجاز مع وفاء الدلالة .

٦- حذف الحال وحذف التمييز :

هاتان فضلتان الأصل فيهما عدم الحذف ، لأن الفضلة ضعيفة لا تكاد تتصور إذا حذفت ، لكننا وجدنا في القرآن بعض المواضع التي اعتراها فيهما الحذف ؛ لأن الدليل عليهما في تلك المواضع من القوة بحيث أجاز ذلك الحذف .

وقد تحدث ابن هشام في المغنى^(٢) عن حذف الحال ، والتمييز ، وذكر بعض مواضع حذف الحال ولكنه لم يمثل لحذف التمييز في القرآن الكريم ، مع أن في القرآن مواضع جاء فيها التمييز محذوفاً .

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام : ٦٢٤/٢ (بتصرف) .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٦٣٤/٢ .

فمن أمثلة حذف التمييز في القرآن الكريم قوله تعالى حكاية عن أهل الكهف : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ (الكهف: ١٩) .

التمييز في هذه الآية محذوف تقديره : كم يوماً لبثتم ؟ ودليل الحذف : كون السائل مستفهماً عن مدة لبثهم نائمين ، وإنما كان التقدير بـ « اليوم » دون ظروف الزمان الأخرى لأن السؤال منصب عن مدة النوم ، والنومة الواحدة لا تتجاوز - في العادة - اليوم أو بعضه .

كما جاء التمييز محذوفاً في نفس السورة في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ (الكهف: ٢٢) . والتقدير : ثلاثة فتیان أو أشخاص ، والمعدود معلوم الحقيقة والجنس فلذلك سُوِّغَ حذف تمييزه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (الأعراف: ١٦٠) ، فقد نص المفسرون على أن التمييز محذوف تقديره : قطعة ، والذي دلَّ على الحذف أن كلا من « أسباطاً » و« أمماً » لا يجوز إعرابه تمييزاً لـ « اثنتى عشرة » لأمرين :

أولاً : أنهما جمع ، وتمييز العدد المذكور لا يكون مفرداً منصوباً .
ثانياً : تأنيث جزئي العدد يدل على أن التمييز مؤنث ، إذن فهو محذوف ، فإن كان في حذف التمييز ما يؤدي إلى لبس في المعنى وجب ذكره .
ومثاله من سورة الكهف أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥) .

وذلك لأن العدد المذكور لم يدخل في حساب أحد منهم ، وعلمه إنما إلى الله وحده فكان لا بد من ذكره ، وكذلك كان .

ثم انظر إلى عَجْز الآية حينما عطف القرآن قوله : ﴿ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ كيف عاد إلى حذف التمييز عندما سهل تصويره ، فلم يذكر تمييز التسع ، لماذا ؟

لأنه قد عَلِمَ من العطف على ما عَلِمَ تمييزه نصًّا ، فكان ذكره شبيهًا بالزيادة التي لم تدع إليها حاجة في البيان .

وهذا فن عظيم من فنون التصرف في القول لم تجده على كماله إلا في القرآن الكريم لأنه تنزيل حكيم .

أما حذف الحال فقد جاء فيه من مواضع كثيرة ، وفي كل موضع حُذِفَ فيه الحال قد قام الدليل القوي على حذفه وتقديره ، كأن يكون عاملاً قد بقي معموله ، خذ إليك مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَكُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ ﴾ (الرعد: ٢٣، ٢٤) .

والتقدير : قائلين لهم : سلام .

فالمحذوف حال من الفاعل الذي هو الواو في « يدخلون » ، وهي - أي الحال - هنا اسم فاعل له معمول هو : « سلام عليكم » ، وهو مقول القول المحذوف الواقع حالاً ، فبقاء المعمول يتطلب تقدير العامل ضرورة ، ولذلك صح الحذف لقوة القرينة وللإسراع إلى تعجيل المسرة التي يوحي بها المعمول : « سلام » .

وذلك فضل الله يتلقى به أهل رضوانه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧) ، أي قائلين : ربنا .

فهل ترى في حذف أي منهما « الحال » و « التمييز » - وهما فضلتان - أي إجحاف بالمعنى أو قصور في البيان .

● حذف المفعول به :

لعلماء البلاغة بحوث رائعة في حذف المفعول ، قلبوا فيه وجوه القول ، وأولوه عناية خاصة لم يولوها لغيره من المحذوفات ، وقعدوا له القواعد ، وذكروا الأسباب .

• الأغراض البلاغية لحذف المفعول به :

١- البيان بعد الإبهام ، كما في فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا لم يكن في تعلقه بمفعوله غرابة .

ومثاله من القرآن : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٩) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ﴾ (الأنعام: ٣٥) .

فإذا كان في التعلق غرابة امتنع الحذف ، ومثلوا له من غير القرآن بقول الشاعر :

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًّا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ^(١)
فقد صرَّح بالمفعول به ولم يحذف لأنه بكاء دم وهو غريب في العادة ولو حُذِفَ لَمْ يُعْلَمَ .

وفي البيان بعد الإبهام يقول عبد القاهر : « وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام ، وبعد التحريك له أبداً لطفاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك ، وأنت إذا قلت : لو شئت ، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء ، فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئاً تقتضي مشيئته له أن يكون أو لا يكون ، فإذا قلت : لم تفسد سماحة حاتم - عرف ذلك الشيء ، وليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت : لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها .. صرت إلى كلام غث ، وإلى شيء يمجح السمع ، وتعافه النفس »^(٢) .
وهذا السبب وجيه ، فلا اعتراض عليه .

٢- دفع توهم غير المراد :

ومثلوا له بقول الشاعر :

وَكَمْ ذِدَّتْ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وَسُورَةِ أَيَّامٍ حَزَزَنَ إِلَى الْعَظَمِ

(١) نسبه الدسوقي لأبي الهندام الخزيمي يرثى ابنه الهندام ، وكذلك نسبه المبرد في الكامل :

(٢/٢٥١) وابن الأثير في المثل السائر ص ٣٠٣ وعبد القاهر في الدلائل ص ١٢٦ .

(٢) دلائل الإعجاز ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ص ١٨٤ .

أي حزن اللحم إلى العظم ، وإنما حُذِفَ المفعول لئلا يتوهم متوهم أن الحز كان إلى اللحم فقط ، وهذا يُشعر بتهوين أمر الملمة المدفوعة ، والمقام مقام مدح المناسب فيه عِظَم النعمة .

لذلك طوى ذكره لأنه يفهم المراد ابتداءً .

وهذا أيضاً توجيه دقيق ولا شيء فيه .

٣- إظهار كمال العناية بوقوعه على المفعول ، ومثّلوا له بقول البحتري يمدح المعتز .

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤْ دُدٍ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلًا
أي قد طلبنا لك مثلاً في هذه المظان فلم نجده ، فحذف المفعول الذي هو «مِثْلًا» لأن غرضه أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل دون ضميره ، وفي ذلك إظهار لكمال العناية بوقوع النفي على المفعول ، ولو ذكره لوقع النفي على الضمير فيفوت المراد .

وفي البيت توجيه آخر مؤداه : إن الحذف هنا لكرهية أن يواجه الممدوح بأن له مثلاً ، والذي أراه أن التوجيه الأول في البيت أحق بالاعتبار في توجيه الحذف ، وإن كان في التوجه الثاني رقة وعذوبة .

٤- قصد التعميم في المفعول مع الاختصار ، وقد مثّلوا له بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ (يونس: ٢٥) .

أي : يدعو كل أحد ، ويلاحظ أن العموم مستفاد حتى مع ذكره ولذلك قالوا : «مع الاختصار» - ليسلم لهم التمثيل ؟

• سبب قرآني بحث :

٥- رعاية الفاصلة ، وهذا سبب قرآني لا غير ، أما الأسباب التي سبقت فعامية وإن كان بعضها ليس له شاهد في القرآن .

وقد مثلوا له من القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَالْضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (الضحى: ١-٣).

أي : وما قلاك ، فحذف الكاف الذي هو ضمير المخاطب وواقع مفعولاً به لمرعاة الفاصلة ، لأن ما قبلها كانت فاصلته الألف .

ولنا عود لمناقشة هذا التوجيه . .

٦- استهجان ذكره . ومثلوا لذلك بحديث عائشة رضي الله عنها تصف أخلاق بيت النبوة : « فما رأيتُ منه وما رأى مني » تعني : العورة .

٧- مجرد الاختصار ، ومثلوا له من القرآن بقوله تعالى : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ (الفرقان: ٤١).

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢).

وقد عدَّ السكاكي^(١) من الحذف لمجرد الاختصار قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (القصص: ٢٣، ٢٤) .

● خلاف حول آية :

فقد حُذِفَ المفعول في النص الحكيم في أربعة مواضع وهي : « يسقون » - « تذودان » - « نسقي » - « فسقى » .

ويخالف الخطيب السكاكي . فيعد الحذف في المواضع الأربعة لإثبات العلم في نفسه^(٢) .

وكذلك قال الزمخشري : « ترك المفعول لأن الغرض هو الفعل لا المفعول »^(٣) .

(١) مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي .

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني : ٢٢٧/٢ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري .

كما يرى هذا الرأي عبد القاهر الجرجاني ، وله في توجيه هذا الحذف كلام طويل^(١).

وعلى هذا فإن الخطيب والزمنشري وعبد القاهر يرون غير ما يراه السكاكي في الحذف المذكور .

وقد حاول السيد أن يوفق بين هذين الرأيين ، لكنه في النهاية مال إلى رأي السكاكي حيث قال : « فصاحب المفتاح نظر إلى أن المفعول هو الغنم المضافة إليهما - بنتا شعيب - والمواشي المضافة إليهم ، وكل واحد منهما يقابل الآخر ، فلو لم يقدر المفعول في الآية لفسد المعنى ، وهذا أدق نظراً وأوضح معنى^(٢) » .

والذي يؤخذ على رأي السكاكي والسيد ، أن المفعول ما دام بهذه المنزلة عنده من الأهمية فلماذا جعل مجرد الاختصار علة الحذف ، ومجرد الاختصار حجة ضعيفة ؟

● نقد وتوجيه :

هذا مجمل لما ذكره من أسباب حذف المفعول وأغراضه البلاغية .. فهل ينتهي البحث البلاغي عندها ؟ أم يمكن أن يتوصل إلى أسباب وأسرار أخرى ؟ وهل هذه الأسباب التي ذكروها مسلمة ؟ أم بينها ما يحتمل المناقشة والتعديل ؟

مع إعجابي بالبحوث القيمة التي وضعها العلماء في حذف المفعول بالذات ، فإن لي على بعض توجيهاتهم تحفظات آراها ضرورية ، وهي كالآتي :

أولاً : أنهم يرون مجرد الاختصار - مفرداً ، أو هو مع إرادة العموم - سبباً بلاغياً في حذف ما يُحذف ، وهذا لا يُسلم على إطلاقه فمجرد الاختصار ضمن علة أخرى للحذف قوية أمر لا يُدفع ، وليس لنا عليه ملاحظات .

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ١٨٢ .

(٢) المطول لسعد الدين التفتازاني ص ١٩٧ .

أما أن يُجعل مجرد الاختصار وحده سرّاً بيانياً نوجّه به الأسلوب ، فذلك ما لا يمكن قبوله في يسر .

وكل موضع حكموا بأن الحذف فيه لمجرد الاختصار يمكن توجيهه بلاغياً على غير الوجه الذي ذكروه ، فلننظر في أمثلتهم عليه .

فهم يذكرون قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ (الفرقان: ٤١) ، ويقولون : إن الحذف فيه لمجرد الاختصار ؟

وقوله تعالى : ﴿ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣) ، ويقولون : إن الحذف فيه لمجرد الاختصار كذلك ؟

ويذكرون قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢) ، ويقولون : إن الحذف فيه لمجرد الاختصار أيضاً ؟

والمواضع الثلاثة تحتل غير ما ذكروه ..

فالحذف في الآية الأولى يمكن حمله على غرض آخر مؤداه : أن من صدر منهم هذا الكلام : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ - وهم المشركون - ينكرون أن يكون محمد ﷺ مبعوثاً رسولاً من عند الله ، لذلك صدّروا مقولتهم بالاستفهام الإنكاري ، فإثبات الرسالة له أمر لا تساعدهم عليه أنفسهم ولذلك جاء التعبير مصوراً للقلق النفسي الذي كان يساورهم من أمر الرسالة ، حيث حذف المفعول لأنهم يكرهون وقوع بعثه رسولاً في الواقع ، لذلك لم يوقعوا الفعل «بعث» على ضميره ليطابق اللفظ حالتهم النفسية .

• كراهة نسبة الرسالة هي السبب :

إذن فكراهة نسبة الرسالة إلى محمد ﷺ في الواقع وفي اللفظ هي التي أوحى بحذف المفعول ، وهذا الحذف يَصوِّرُ لنا ما وراء اللفظ من خفايا نفوسهم وظواهرها ، لا أن الحذف جاء لمجرد الاختصار - كما يقولون !

ولهذا نظير عندهم من غير باب حذف المفعول ، وهو قول الشاعر :

إِذَا سَمِمْتُ مُهَيَّئَةً يَمِينٌ لَطُولِ الْعَهْدِ بِذَلِكَ شَمَالاً

والأصل : يمينه ، أي يمين الممدوح ، فحذف الهاء الواقع مضافاً إليه ،
وعلّوه بقولهم : إنه لكرهة إسناد السأم ليمين الممدوح ، فأخرج الكلام مخرج
مطلق يمين لا يمينه هو .

والآية الثانية : ﴿ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣) . قَدَرُوا فيها المحذوف :
ذاتك ، وحملوا حذفه على مجرد الاختصار .

● عزة المطلب هي السبب :

فلماذا لا يكون الحذف لأن نفس موسى عليه السلام لا تساعد عليه - لعزة
المطلب - لذلك طوى في نفسه ذكره ولم يصرّح به .

والواقع يشهد بذلك ، فإن الناس إذا سأل بعضهم بعضاً ، وكان موضوع
السؤال عظيمًا فإن السائل يتلجلج أمام المسئول ولا يكاد يُفصح عن المطلوب .

فسبب الحذف في الآيتين نفسي مع الاختلاف في البواعث ، ففي حذف
المفعول في قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ
رَسُولًا ﴾ (الفرقان: ٤١) كان السبب نفسيًا باعثه كراهة إيقاع الفعل على ضمير
المسند إليه ليطابق اللفظ الشعور .

أما في قوله حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ فإن
السبب نفسي كذلك هو الرهبة والإجلال والطمع في مطعم .

وذلك - فيما أرى - أولى من اعتبار علة الحذف فيهما مجرد الاختصار .

أما الآية الثالثة فقد كفانا الخطيب القزويني مؤنة البحث فيها فقال : « يجوز
حمل الحذف فيها لأن الغرض إثبات الفعل في نفسه فيكون التقدير : وأنتم من
أهل العلم والمعرفة »^(١) .

● مجرد الاختصار وحده لا يكفي :

فمجرد الاختصار - إذن - علة سلبية لا تفسر الأساليب تفسيراً بلاغياً ،

(١) الإيضاح للخطيب القزويني : ٢٢٧/٢ .

والظاهر أن علماء البلاغة كانوا يحملون عليها كل حذف لم يتبين لهم فيه وجه ظاهر من الاعتبارات المناسبة .

فأولى بالباحث الحديث أن يكون من هذا السبب على حذر لأنه يحجر على الفهم ولا يغني عن البحث .

ثانياً : أنهم يعتبرون - كذلك - رعاية الفاصلة سبباً من أسباب الحذف وغيره من مظاهر التعبير المخالفة للظاهر أو العرف اللغوي ، وهي كثيرة جداً في القرآن الكريم .

وقد أحصى منها ابن الصائغ أكثر من أربعين موضعاً زعم أن الحذف فيها وغير الحذف من أجل رعاية الفواصل أو مطابقة رءوس الآي ، ولكنه عاد فقال : « إن هذه المواضع تحتل وجوهاً أخرى غير مناسبة الفواصل ، وقد نقل عنه ذلك السيوطي وقال : إن لشمس الدين ابن الصائغ الحنفي كتاباً سماه « إحكام الرأي في أحكام الآي » ذكر فيه هذه الوجوه .

والأمثلة التي ذكرها ابن الصائغ فإن الظاهر فيها أنها ليست لرعاية الألفاظ بل لدواع أخرى غيرها ، وقد ناقشنا بعضها فيما تقدم .

● ورعاية الفواصل وحدها لا تكفي :

والحق أن رعاية الفاصلة سبب أقوى من مجرد الاختصار ، وهو مع قوته ينبغي عدم التعويل عليه وحده في توجيه الظواهر الأسلوبية .

وهذا أمر أمكن التوصل إليه في يسر ، فلننظر فيما ذكره من أمثله .

إنهم ذكروا قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى: ٣) ، وقالوا : إن المفعول حُذِفَ لرعاية الفواصل .

ويقول الزمخشري^(١) : « إنه اختصار لفظي مثل : ﴿ وَالذِّكْرِ بَ اللَّهِ كَثِيرًا وَالذِّكْرَاتِ ﴾ (الأحزاب: ٣٥) : أي والذاكراته ، وسببه عند الزمخشري - أي

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٦١١/٤ .

سبب الاختصار اللفظي - ظهور المحذوف والأولى - فيما أرى - أن يكون السبب في الحذف - هنا - كراهة مواجهة الرسول ﷺ بأنه موضع قلى من الله ، ولو وقع ذلك في سياق النفي فإن الذوق البلاغي يقتضيه ، وقد أشار إلى ذلك - فيما أذكر - الخطيب في الإيضاح .

ولهذا نظير في القرآن الكريم من اللطف في الخطاب مع النبي عليه السلام حتى في أشد مواضع العتاب كقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ (عبس: ٢٠١) . فلم يواجهه بالعبوس والتولي .

وقال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٤٣) . فقدّم العفو على سبب العتاب ... وغير ذلك كثير .

وإنما لم تكن رعاية الفصل بين الآيات سبباً وحده في الحذف وغيره ، لأنها مظنة السجع المتكلف ، فلذلك ينبغي الحيلة في مثل هذه الأمور ، وبلاغتنا العربية عنية بالاعتبارات المناسبة في توجيه الأسلوب في غير ما سرف أو قصور .

ثالثاً : حذف جملة فأكثر

أما حذف جملة فأكثر ، فإن القرآن قد حفل بكثير منه ، وقد وضع العلماء لهذا النوع ضوابط نوجزها فيما يلي :

أولاً : حذف السؤال المقدّر ويسمى « الاستئناف » ويأتي على وجهين :

١ - إعادة الأسماء والصفات ، وقد مثلوا له من غير القرآن الكريم بقولهم أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان .

وقولهم : أحسنت إلى زيد ، صديقك القديم حقيق بالإحسان .

وقد صرح ابن الأثير بأبلغية الثاني ، وهو ما كان المعاد فيه صفة لاشتماله على موجب الإحسان^(١) .

(١) المثل السائر لابن الأثير : ٢٨١/٢ .

ومثلوا له من القرآن بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٧﴾
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢٨﴾
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦-٢٨).

والاستئناف وارد قبل « أولئك » كأن سائلاً سأل : فما بال المتصفين بهذه
الصفات قد اختصوا بالهدى ؟

فأجيب : إن الذين اتصفوا بهذه الصفات غير مستبعد أن يفوزوا - دون
الناس - بالهدى عاجلاً والفلاح أجلاً ^(١).

٢- الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات ، ومثلوا له من القرآن بقوله تعالى :
﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً
إِن يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بَضْرًا لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنَّي إِذَا
لَفِيَ ضَلَلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ
قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

(يس: ٢٢-٢٧) .

وتقدير السؤال المحذوف : كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه ؟ ف قيل :
﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ .

والى هنا يسكت ابن الأثير .. والظاهر أن في الآية استئنافاً آخر قبل قوله :
﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .. وتقديره : فماذا قال حين قيل له ادخل الجنة؟
فأجيب : ﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثانياً : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب ، ومثلوا للأول
بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ

(١) المثل السائر لابن الأثير : ٢٨١/٢ .

الشَّاهِدِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا
فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٦﴾

(القصص: ٤٤، ٤٥).

فقد ذكر سبب الوحي ، وهو تطاول العمر ، ودلَّ به على المسبب الذي هو
الوحي ، أما الثاني - وهو الاكتفاء بالمسبب عن السبب - فقد مثَّلوا له بقوله
تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨).
والتقدير : إذا أردت قراءة القرآن ، فاكتمى بالمسبب ، الذي هو القراءة عن
السبب الذي هو الإرادة .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ
عَيْنًا ﴾ (البقرة: ٦٠).

والتقدير : فضرب فانفجرت .

ثالثاً : الإضمار - على شريطة التفسير وهو أن يحذف من صدر الكلام
ما يؤتى به في آخره ، فيكون الآخر دليلاً عليه^(١) وهو ثلاثة أنواع :

الأول : أن يأتي على طريقة الاستفهام ، فتذكر الجملة الأولى دون الثانية
مثل : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ فَوَيْلٌ لِلْفَاسِقِ
قُلُوبِهِم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر: ٢٢) .

والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه^(٢) ، ودليل الحذف
قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْفَاسِقِ قُلُوبِهِم ﴾^(٣) .

الثاني : أن يأتي على حدي النفي والإثبات ، ومثَّلوا له بقوله تعالى :
﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ
الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا ﴾ (الحديد: ١٠) .

(٢٠١) المثل السائر لابن الأثير : ٢٨٧/٢ .

(٣) سبق أن في الآية وجوهاً أخرى .

والتقدير : لا يستوي منكم مَنْ أنفق من قبل الفتح وقَاتَلَ ، وَمَنْ أنفق من بعده وقَاتَلَ . ودليل الحذف : ﴿ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾^(١).

الثالث : أن يأتي على غير هذين فلا يكون استنفهما ولا على حدي النفي والإثبات ، ومثّل له ابن الأثير بقول أبي تمام :

يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامٌ

قال : وفي صدر البيت إضمار مفسّر في عجزه ، وتقديره : « أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة ، فكأنما حسناته آثام »^(٢). يرى ابن الأثير أن البيت طباق قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

لكن المفسرين فسّروا هذه الآية على غير ما يراه ابن الأثير ، يقول الزمخشري في معناها : « الذين يعطون ما أعطوا » أي الذين يفعلون الخيرات وهم وجلون من ربهم أن لا يتقبل منهم .

ونقل حديثاً روته عائشة عن النبي ﷺ يؤيد ما ذكره ، وكذلك رأى الإمام النسفي في تفسيره قال : « الذين يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وهم خائفون ألا يُقبل منهم لتقصيرهم »^(٣) .

وعلى هذا فإن ما يراه ابن الأثير من تطابق الآية والبيت غير دقيق .

وأظهر من البيت المذكور في التمثيل له قول الشاعر^(٤) :

سُنَّةُ الْعُشَّاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أُحِبِّتَ فَاسْتَكِنِ

لأن المعنى : سُنَّةُ العشاق واحدة هي الاستكانة ، فإذا أُحِبِّتَ فاستكن .

(٢٠١) المثل السائر لابن الأثير : ٢٨٨/٢ .

(٣) تفسير النسفي : ١٢٢/٣ ، وتفسير الكشاف للزمخشري ، الجزء الثالث .

(٤) هو أبو نواس .

أما مثاله من القرآن فأولى أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٥٠) .
فقد قال المفسرون : « وجعلنا ابن مريم آية ، ثم حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها » .

والحذف من الأول لدلالة الثاني عليه كثير في كلامهم .
رابعاً : ما ليس بسبب ولا مسبب ولا إضمار - على شريطة التفسير ولا استئناف .

أي إن الحذف هنا ليس له ضابط معين ، فهو يشمل كل حذف بعد الأنواع الثلاثة المذكورة وهو - بحق - كثير جداً في القرآن ، وأكثر ما يكون في القصص ولا حد لمقدار ما يُحذف فيه .

ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى يحكي طرفاً من قصة يوسف عليه السلام في السجن : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يوسفُ أيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (يوسف: ٤٥-٥١) .

في هذا النص الحكيم حذف في أربعة مواضع ، والمحذوف ليس حرفاً ولا كلمة مفردة بل كلام كثير ، وتلك المواضع هي :

أولاً : عندما طلب الذي نجا من الفتبين أن يرسلوه إلى يوسف ، وتقدير المحذوف فيه : إلى يوسف فاستجابوا له فأرسلوه فلما مثل أمامه قال له

ثانيًا : بعد أن نبأه يوسف بحقيقة الرؤيا ، والتقدير : فرجع إليهم فقص لهم ما قاله يوسف .

ثالثًا : بعد أن طلب الملك أن يأتوه بيوسف ، والتقدير : فأرسلوا ليوسف رسولاً ليأتي به إلى الملك فلما وصل إليه أعلمه بأمره قال

رابعًا : حين عاد الرسول وأبلغ الملك رغبة يوسف ، والتقدير : فلما رجع الرسول إلى الملك وأبلغه رغبة يوسف أرسل الملك إلى النسوة اللاتي قطعن أيديهن وسألهن قائلاً

والمحذوف في المواضع الأربعة ظاهر موضعه سهل تصوره .. إذ لا يستقيم الكلام إلى بملاحظة المحذوف ودليل الحذف فيها أو قرينته أن هذه الأحداث يحكمها أمران هما : الترتيب الزمني بينها ، ثم التلازم الطبيعي .

أما الترتيب الزمني .. فأمره واضح ، إذ تجرى أحداث هذه القصة على نسق وقوعها : السابق سابق ، واللاحق لاحق ، فلم يتداخل حدثان في زمن واحد .

وأما التلازم الطبيعي .. فمن حديث أن هذه الأحداث ما طوى ذكره منها ... وما ذُكر ولم يُطو .. بينها صلات وثيقة فبعضها مقدمة طبيعية لبعض ، أو لازم له .

ففي الموضع الأول لا يُتصور سؤال الرسول ليوسف عليه السلام إلا بعد تصور استجابة طلبه والإذن له بالذهاب إلى يوسف ثم الوصول إليه ومثوله أمامه .. هذه الفجوات متروكة بلا إشارة ، لأنها واقعة بين طرفين هي واسطتهما ، على طريقة قص المناظر (في الأدب المسرحي والتمثيلي الحديث) .

وما دام الفكر يهتدي إليها في يسر وسهولة ، فإن ذكرها - والحالة هذه - ليس بمستساغ ، ذلك سر الحذف .

يُضاف إليه أن أولى فنون التعبير بالإيجاز والحذف والإجمال هو القصص لأنه يعالج كثيراً من المواقف ويسرد كثيراً من الأحداث ، فمن خصائصه أنه

يحتاج إلى كثير من البيان حتى يكمل بناء القصة ، وتؤدي غرضها الجمالي والأخلاقي ، لذلك كانت القصة ميداناً للاختصار والحذف ، وفي حاجة ماسة إلى التركيز والإجمال ، وكذلك جاء القصص القرآني .

ومن حذف الجمل في القرآن الكريم أمور :

- حذف أداة الشرط وفعله :

ويكثر هذا بعد الطلب^(١) نحو : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١) ، أي : إن اتبعتموني .

ونحو : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (إبراهيم: ٣١) . أي : أن تقل لهم .

وجعل منه الزمخشري قوله تعالى : ﴿ فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدُهُ ﴾ (البقرة: ٨٠) ، أي إن اتخذتم عند الله عهداً .

كما جعل منه أبو حيان قوله تعالى^(٢) : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُونِ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ (البقرة: ٩١) . أي : إن كنتم آمنتم بما أنزل الله إليكم فلم تقتلوا ؟

ويجوز أن يجعل منه قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثْنِي وَيَرْثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ (مريم: ٦٥) ، على قراءة من جزم الفعل وجعل منه السعد^(٣) وابن الأثير^(٤) وقوله تعالى : ﴿ يَنْعِبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴾ (العنكبوت: ٥٦) .

وجعلا الفاء في « فاعبدون » واقعة في جواب شرط محذوف تقديره :

إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة في أرض فاخلصوها في غيرها ، فحذف الشرط وعوض منه تقديم المفعول لإفادة الاختصاص .

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، جلال الدين السيوطي .

(٢) من معترك الأقران : ٣٣٢/١ .

(٣) المطول لسعد الدين التفتازاني .

(٤) المثل السائر لابن الأثير : ٣١٧/٢ .

- حذف جواب الشرط :

وهو كثير في القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ (الأنعام: ٣٥) . أي فافعل ..

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (يس: ٤٥) ، أي : أعرضوا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ (السجدة: ١٢) . أي : لرأيتَ أمراً عظيماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٠) . أي : لعذبكم .

ومنه الآيات الآتية: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (سبأ: ٥١) ^(١) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْأَمْوَاتُ ﴾

(الرعد: ٣١) .

فحذف جواب الشرط عام فيما كانت الأداة فيه جازمة أو غير جازمة ، كما في الأداة « لو » في الموضعين المذكورين .

فإذا لم يتضح جواب « لو » وجب ذكره ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر: ١٤، ١٥) .

وكذلك حذف جواب « لما » في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ﴿ وَتَدَيَّنَتْ أَنْ يُتْلِئَ رَهِيمٌ ﴾ ﴿ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّبَيَّا إِنَّكَ كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

(الصفات: ١٠٣-١٠٥) .

(١) وقد مر بيان هذه الآية فيما سبق ص ٣٦ .

- حذف جواب القسم :

ما أكثر حذف جواب القسم في القرآن ، وقد جاء ذلك في مطالع السور
مثل : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ (النازعات: ١)، ومثل : ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾
(ص: ١)، ومثل : ﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ (ق: ١)، ومثل : ﴿ وَالْفَجْرِ ۝﴾
وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (الفجر: ٢٠١).

وتقدير الجواب في الأول : لتبعثن ، وفي الثاني : إنه لمعجز - يعني
القرآن ، وفي الثالث : ليس الأمر كما زعموا ، وفي الرابع : ليعذبن .
هذا في مطلع السور ، أما في درج الكلام فإن السيوطي يرى في قوله تعالى :
﴿ لَاُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ (النمل: ٢١). إن جملة القسم محذوفة .. والتقدير :
والله قسمي .

وفي حذف الشرط أو جوابه أو حذف جواب القسم فإن دليل الحذف ما بقي
من الأجزاء ، أما السبب البلاغي فلتقديره النفس بأي صورة مناسبة وفيه تكثير
المعنى فقد قدر صاحب النحو الوافي جواب القسم في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ
قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ (الرعد: ٣١) . بقوله : ما نفعمكم ، وقدره المفسرون
بقولهم : لكان هذا القرآن .. وهو أرجح مما ذهب إليه صاحب النحو الوافي .

• أنواع الحذف :

ذكر السيوطي في كتابه « معترك الأقران »^(١) أن الحذف يأتي على أربعة
أنواع هي : الأول : الاقتطاع

وهو حذف بعض أحرف الكلمة لغير علة صرفية أو نحوية^(٢) ، وقد حكى
السيوطي أن ابن الأثير يمنع ورود هذا النوع في القرآن الكريم ، ثم ذكر رأي
المؤيدين لوروده فيه ذاكرًا أمثلتهم وأدلتهم كورود الحروف المقطعة في أوائل

(١) الجزء الأول ص ٣١٩ .

(٢) هذا القيد زيادة أرى ضرورة إثباتها للفصل بين الحذف الذي ينشأ عن العلل النحوية
والصرفية ، والحذف الذي يسمونه : الاقتطاع لاختلاف أمثلتهما .

السور - على رأي مَنْ يقول إنها ترمز إلى أسماء الله - ثم قال : .. وادعى بعضهم أن «الباء» في قوله تعالى : ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ (المائدة:٦) أول كلمة «بعض» ثم حذف الباقي ، ومثل قراءة : «ونادوا يا مال» بالترخيم^(١).

ويبدو أن السيوطي يميل إلى رأي ابن الأثير في إنكاره ورود هذا النوع في القرآن على الرغم من أنه ذكر أمثلة أخرى منها حذف همزة «أنا» في قوله تعالى : ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ (الكهف:٣٨)، إذ جعل التقدير : لكن أنا هو الله ربي .

وكذلك أورد أربعة أمثلة أخرى لقراء مختلفين : «ويسمك السماء أن تقع علرض» . و .. «وبما أنزلتك» و «من تعجل في يومين فلثم عليه» و «إنها لحدى الكبير» .

وقد راجعتُ كلام ابن الأثير في ذلك ، فلم أجده قد صرح بعدم وجوده بل اكتفى بتعليقه على بعض أمثله من غير القرآن بقوله : «فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن وإن كانت العرب قد استعملته فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله»^(٢) .
والمثال الذي علّق عليه ابن الأثير هو قول الشاعر^(٣) :

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرْفٍ مُقَدَّمٌ بِسَبَا الْكِتَانِ مَلْشُومٌ

والتقدير : بسبائب الكتان .

والذي أذهب إليه أن ابن الأثير قد جانبه التوفيق في إنكاره ، ومن أقوى الأدلة عليه ما ذكره السيوطي نفسه من أمثلة تقدم ذكرها .

على أن في القرآن أمثلة أخرى لم يذكرها السيوطي ، وأكثر ما يكون ذلك في أسماء المصادر مثل قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (نوح:١٧) . والأصل : إنباتًا .

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، للسيوطي : ٣١٩/١ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير : ٣٣٢/٢ .

(٣) هو علقمة بن عبدة الفحل : المرجع السابق (٣٣٢/٢) وما بعدها .

ولعل السر في العدول عن الأصل أمران :

الأول : لفظي وهو التخلص من كسرين يؤديان إلى نوع ما من الثقل إذا قارنا بين الصورتين : الأصلية ، والتي عليها التعبير ؛ لأن «الضاد» من أرض مكسورة كما أن «الهمزة» من المصدر - وهي أول حرف فيه - مكسورة .

الثاني : معنوي لأن المصدر «إنباتًا» يدل على مجرد الحدث ، أما اسمه «نباتًا» فيدل على صورة النبات بعد خلقه وترعرعه ، فضلاً عن دلالة على الحدث ، ولا شك أن ما دل على معنيين أولى مما دل على معنى واحد ، والمقام هنا يقتضي ذلك لأنه بيان لقدرة الله سبحانه .

وقد جيء بالمصدر الأصلي في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح: ١٨) والمقام واحد .

فلماذا إذن خولف نسق الآية الثانية عن نسق الأولى ؟

والجواب من وجهين :

أولاً : لأن ما أطلقنا عليه «ثقل لفظي» في الأولى لو جيء بالأصل ، زال هنا في هذه الآية لسكون ما قبل همزة المصدر المكسورة .

ثانياً : لأنه لو قال : «خروجًا» بدل «إخراجًا» ، والخروج مصدر خرج اللازم لأشعر ذلك - ولو في الوهم - أن الناس مختارون لخروجهم من المقابر خارجون بقدرتهم ، وهذا الفهم لا يستقيم مع المقام ، وإنما لم يراع هذا الوجه في الأولى لأن النبات لا تُتصور له إرادة محضة ، ومنه كذلك حذف الياء من قوله تعالى حكاية عن الخضر عليه السلام : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (الكهف: ٦٤).

وقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ (الفجر: ٤) . فقد جاء حذف الياء في الموضعين واجتزأ عنهما بالكسرة وبهذا يتضح ضعف ما ذهب إليه ابن الأثير .

الثاني : الاكتفاء

وهو ما يقتضي المقام فيه ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفي بأحدهما عن الآخر لنكتة^(١) ويختص غالباً بالارتباط العطفى كقوله تعالى : ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ (النحل: ٨١) . أي والبرد : وفي تخصيص الحر بالذكر دون البرد قيل : لأن الخطاب أصلاً كان للعرب وهم في بلاد حارة ، فذكر ما هو أهم وهذا أوجه ما قيل في توجيه الآية^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ (آل عمران: ٢٦) ، أي والشر ، وذكر الخير دون الشر لرغبة الناس فيه ، أو لأنه أكثر وجوداً من الشر ، ذكر الرايين السيوطي في المعترك أيضاً^(٣) .

ومن أمثله أيضاً الآيات الآتية : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

(الأنعام: ١٣) .

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ (البقرة: ٣) .

والتقدير في الأولى : وما تحرك ، وخص السكون لأنه الأصل ، والتقدير في الثانية : والشهادة ، وخص الغيب بالذكر لأنه أدخل في باب المدح ، ولاستلزامه الإيمان بالشهادة .

وهناك أمثلة كثيرة لهذا النوع فلنكتف بما ذكرناه .

الثالث : الاحتباك

وهو أن يحذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، ومن الثاني ما ثبت نظيره في الأول .

ويطلق عليه الزركشي : «الحذف المقابلي» فيقول : «هو أن يجتمع في الكلام متقابلان . فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه»^(٤) .

(١) معترك الأقربان في إعجاز القرآن للسيوطي : ٣٢٠/١ .

(٢) نقل السيوطي في المعترك (٣٢٠/١) وجوهاً أخرى هذا أحسنها .

(٣) معترك الأقربان في إعجاز القرآن للسيوطي : ٣٢١/١ .

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١١٩/٣ .

ومبنى هذه التسمية من الحبك ، وهو الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب ، فحبك الثوب شد ما بين خيوطه بحيث يمنع عنه الخلل^(١) وأصله من قولهم : بعير محبوبك العرى : أي محكمها ، والاحتباك شد الإزار^(٢) .

فكأن هذا النوع من الحذف يُكسب الكلام قوة وزينة ، القوة من حيث استيفاء الأقسام ، والزينة من حيث الحذف المتناظر ، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١) .

والتقدير : ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذي ينعق ، والذي ينعق به ، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة الذي ينعق عليه ، ومن الثاني الذي ينعق به لدلالة الذين كفروا عليه^(٣) .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (النمل: ١٢)

والتقدير : تدخل غير بيضاء ، وأخرجها تخرج بيضاء ، فحذف من الأول : تدخل بيضاء ومن الثاني : وأخرجها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٢٤) .

والتقدير : يعذب المنافقين فلا يتوب عليهم أو يتوب عليهم فلا يعذبهم ، وهذا فن بديع فيه روعة وخلاصة .

قال السيوطي : ومن لطيفه قوله تعالى : ﴿ فَعَثَّةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ (آل عمران: ١٣) . أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت^(٤) .

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ٣٢٣/١ .

(٢) مفردات القرآن الراغب ص ١٠٦ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٦٠/١ .

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ٣٢٢/١ وما بعدها .

قال الكرمانى : « وله فى القرآن نظائر وهو أبلغ ما يكون من الكلام » حكاه عنه السيوطى فى المعترك .

وأنت ترى أن هذا الأسلوب شبيه بالميزان الدقيق الحساس .. فما أخرى أن يسمى به .

الرابع : الاختزال

وهو ما ليس واحد مما سبق ، والمحذوف فيه إما اسم أو فعل أو حرف أو أكثر ، وإلا ظهر أن يسمى « الحذف العام » لأنه لا يمكن التفرقة بينه وبين الأقسام الثلاثة المتقدمة لا من حيث المحذوف ، ولا من حيث كيفية الحذف ، فأمثله - إذن - هي ما تقدم لأنه يشمل حذف المضاف والمضاف إليه ، والصفة والموصوف والفعل وهكذا .

ومن أمثله قوله تعالى : ﴿ الْحَبْجُ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ﴾ (البقرة: ١٩٧) ، أي حج أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ (النساء: ٢٣) . أي نكاح أمهاتكم .

وقوله تعالى : ﴿ لَّا ذَقْنَلَكْ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ (الإسراء: ٧٥) أي ضعف عذاب .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ (الروم: ٤) أي من قبل الغلب ومن بعده .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾ (الشعراء: ٦٣) .. أي فاضرب فانفلق ..

وهكذا .. فأنت ترى أن ما سموه من الحذف بالاختزال شامل لجميع الأقسام على ما بيناه فليس له من نصيب إلا التسمية .

● والخلاصة :

صاحبنا القرآن الحكيم في هذا الفصل في بعض مواطن الحذف فيه ، والذي يدعوه البلاغيون : « أحد مظاهر الإيجاز » ؛ وهو أن يكون المعنى المفهوم من اللفظ أكثر من الألفاظ التي استعملت فيه ، وهذه فضيلة واحدة عامة من فضائل الحذف في القرآن - أعني الإيجاز المذكور - وليس الحذف القرآني ينتهي عند هذه الفضيلة المسماة بالإيجاز ، بل له فضائل بيانية أخرى تكاد تتعدد بتعدد مواضع وروده ، وخصائص الحذف القرآني - فيما أرى - يمكن تلخيصها في الآتي :

● خصائص الحذف القرآني :

أولاً : سلامته من الإجحاف بالمعنى والخلل في الأسلوب فكل حذف فيه يحكمه أمران :

(أ) دليل قوي يعين على تصويره وقد يعينه تعييناً أحياناً ، وكل منهما - أي التصور والتعيين - بليغ في موضعه ، ففي قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (يوسف: ١٨) يحصل تصور المحذوف دون تعيينه ، فيجوز أن يقدر التركيب على هذا الوجه : فأمرني صبر جميل ، ويجوز أن يكون : فصبر جميل أمثل ، وفي هذا تكثير للفائدة .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ ﴾ (البقرة: ٦٠) . يمكن تعيين المحذوف ، والتقدير لا محالة : فضرب فانفجرت .

وقد أفاد هذا الحذف مع الإيجاز سرعة حصول الانفجار^(١) والسرعة هنا مطلوبة لأن المقام مقام طلب للنجاة من فرعون وقومه .. وقد كرر هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾ (الشعراء: ٦٣) . فاتحد الموضوعان في الحذف والغرض .

(١) تفسير أبو السعود ١٢٩/١ .

ويمكن أن نفهم من هذين الموضعين - فوق فضيلة الإيجاز ، وفوق معنى السرعة - معنى ثالثاً لم أجد أحداً قد نص عليه .

وهو أن الحذف يشير فيهما إلى سرعة امتثال موسى عليه السلام لأمر ربه ، حتى إن الزمن بين تلقيه الأمر وتنفيذه لا يكاد يُذكر لقصره وذلك يكشف لنا - أيضاً - أن موسى عليه السلام كان متلهفًا لما يشير عليه به ربه في التصرف أمام الأزمات .

(ب) الداعي البلاغي الذي دعا إلى الحذف ، وهذا الداعي على ما وضع فيه البلاغيون من بحوث قيمة وثرية ، ما زال مورداً بكرةً في القرآن الكريم ، فالباحث في مواضع الحذف في القرآن واجد جديداً لم يشر إليه القوم وقد بان لنا - نحن - في غضون هذا الفصل نصيب من ذلك الجديد ، مثل ما ذكرناه في توجيه الحذف في قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿ تَاللّٰهِ تَفْتُوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ (يوسف: ٨٥) . من أن الحذف كان لضيق المقام ، ومثل ما ذكرناه من توجيه الحذف في قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ اٰهٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللّٰهُ رَسُوْلًا ﴾ (الفرقان: ٤١) . حيث أرجعنا حذف عائد الصلة إلى أمر نفسي هو كراهية إيقاع الفعل المفيد لإثبات الرسالة للنبي ﷺ على ضميره ، لأن أنفسهم لا تساعد على .. والبلاغيون يعدون الحذف فيه من مجرد الاختصار . وقوله تعالى : ﴿ اَرِنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣) ، حيث أرجعنا الحذف فيه إلى عامل نفسي كذلك هو الرهبة والإجلال والطمع في غير مطمع .

والبلاغيون يعدونه - كذلك - من مجرد الاختصار .

ومثل ما ذكرناه من توجيه الحذف في قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى: ٣) ، من أن حذف المفعول فيه كراهية مواجهة النبي ﷺ بأنه موضع قلى من الله ، أو للإشعار بمنزلته عند الله فلذلك لم يوقع على ضميره فعل مكروه ، والمجال - بعد - مفتوح أمام النظر العميق الفاحص ، وهذا مورد لا ينضب .

ثانيًا : أن كل موضع حُذِفَ فيه منه شيء فالحذف فيه أبلغ من الدُّكر من حيث المعنى فليس في القرآن حذف ألبس أو أخل كقول الشاعر :

وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ النَّوْكِ مِمَّنْ عَاشَ كَدًّا

حيث حذف فالبس وأخل ، وظل لفظه دون معناه ، لأن مراده العيش الناعم ولذلك عابره وحكموا بقصوره .

● شهادة عدلين :

وأكد أجزم أن عبد القاهر حينما قال : « ما من اسم حُذِفَ في الحالة التي ينبغي أن يُحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره »^(١) .

إنما كان يعني الحذف في القرآن على أن يُحمل كلامه على جميع صور الحذف ، سواء أكان المحذوف اسمًا ، أو فعلًا ، أو حرفًا ، أو جملة ، أو أكثر من جملة .

ونختم هذا الفصل بشهادة أديب ذوّاق ، وناقد فاحص :

« إن القرآن حين يحذف فيه ما يحذف من مشاهد وأحداث يحمل السامع أو القارئ على المشاركة في بناء ما يمكن أن يقص ، تنشيطًا لخياله ، وتحريكًا لوجدانه ، فيظل - أبدًا - مأسورًا لما يسمع أو يقرأ ، ماضيًا على هوى نفسه ، وقد استمتعت نفسه بكل مزايا الفن الجميل ، مؤمنًا بما يهدف إليه القصص القرآني من مثل عليا وآداب رفيعة ، وذلك لأن القرآن يحيل الجمال الفني أداة للتأثير الوجداني ، فخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية »^(٢) .

هذا النص الموقف ، وإن كان خاصًا من حيث قصد كاتبه بالقصص القرآني ينطبق على مظاهر الحذف في القرآن جميعها ، فلكل حذف فيه نصيب .

* * *

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني .

(٢) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ص ١٤١ .